الأرثوذكسية والهرطقة

دراسة تاريخية في قواعد فرز الهرطقة وعزلها

دكتور جورج حبيب بباوي

٢٠١٧

الأرثوذكسية والهرطقة

دراسة تاريخية في قواعد فرز الهرطقة وعزلها

دكتور جورج حبيب بباوي

٢٠١٧

الكتاب : الأرثوذكسية والهرطقة
الكاتب : الدكتور جورج حبيب بباوي
الناشر : جذور للنشر – ت: ٢٦٣٣٨١٣٧
الطبعة : الأولى ٢٠١٧
رقم الإيداع : ٢٥٤٨٧ / ٢٠١٦
الترقيم الدولي :978-977-5088-18-1
المطبعة : جي سي سنتر ت: ٢٦٣٣٨١٣٧
١٤ ش محمود حافظ . ميدان سفير . مصر الجديدة

جدول المحتويات

الفصل الأول

العقيدة الأرثوذكسية ٧

مقدمة ٩

المبحث الأول

الكنيسة الجامعة، وقواعد فرز الهرطقة ١١

أولاً: العقيدة الأرثوذكسية في المجامع المسكونية: ١١

عقيدة الثالوث، وما بينها وبين العقائد الأخرى من ارتباط: ١١

عقيدة المسيح الواحد في مجمع أفسس ٤٣١م: ١٢

ثانياً: العقيدة الأرثوذكسية بعد عصر المجامع المسكونية: ١٣

الجدل اللاهوتي المعاصر في الكنيسة القبطية: ١٥

مجمل التراث القبطي الحديث: ١٥

حصاد المائة سنة الأخيرة: ١٦

التمييز بين الدفاع عن الإيمان، وشرح الإيمان: ١٨

مثال صارخ على الشركة في الصفات: ٢٠

أثر هذا الشرح على موضوع الخلاص: ٢٢

انعدام التمييز هو مشكلتنا الحقيقية: ٢٣

ثالثاً: مصر والكنيسة في عصر الإرهاب الأصولي: ٢٤

العلاقة بين الهرطقات والفكر الأصولي: ٢٤

رابعاً:كيف تفرز الكنيسة الجامعة الهرطقة: ٢٦

المبحث الثاني

كيف كانت الكنيسة تحاكم الهراطقة في الماضي، وماذا يحدث في الحاضر؟ ٢٨

الثقافة السائدة والاتهام بالهرطقة: ٢٩

ما معنى الاسم: "المسيح"؟ ٣٢

اختلال ميزان الإفراز: ٣٣

التكفير حسب الأسلوب القبطي المعاصر: ٣٥

كيف دخل أسلوب التكفير في حياة الجماعة القبطية؟ ٣٦

الفصل الثاني

قواعد فرز الهرطقة كما نراها في التاريخ الكنسي ومؤلفات الآباء ٣٩

المبحث الأول

آلية فرز الهرطقة والحكم عليها ٤٢

ضرورة وجود الأدلة والشهود: ٤٢

وثيقة تجريد أريوس من الكهنوت: ٤٣

ملاحظات هامة على وثيقة اتهام وقطع أريوس ٤٥

المبحث الثاني

الأدلة التاريخية على أسلوب الكنيسة المقدسة في إفراز الهرطقة ٤٦

ملاحظات على نص الشهادة التاريخية: ٤٧

شخصية أريوس كمثال لمحبي الخصام والشجار: ٤٨

الدور الرعائي للبابا الإسكندر: ٤٨

علانية المشاركة حتى أثناء انعقاد مجمع نيقية: ٤٩

حق الدفاع عن النفس يؤكده حق الاستئناف: ٥٠

حكم مجمع نيقية: ٥١

الفصل الثالث

المبادئ اللاهوتية والقانونية التي حددت خطأ نسطور وهرطقته ٥٣

شُكر: ٥٥

عتاب: ٥٥

المبحث الأول

التعبيرات والمصطلحات اللاهوتية الخاصة بالتجسد قبل مجمع أفسس المسكوني ٤٣١م ٥٦

١- تعبيرات ومصطلحات لاهوتية بريئة: ٥٦

٢- تعبيرات لاهوتية جيدة، ولكن لا تكفي لمواجهة خطأ جديد: ٥٧

ملامح من شخصية نسطور: ٥٧

تبادل الاتهامات يخلق الانقسامات: ٥٨

سوء فهم لقب والدة الإله وسوء نية نسطور: ٥٨

لماذا لا يتراجع الهراطقة؟ ٦٠

المبحث الثاني

الحوار اللاهوتي على المستوى الإقليمي ٦٢

المبحث الثالث

الحوار اللاهوتي على المستوى المسكوني ٦٥

الإنذار قبل القطع من الكهنوت: ٥٦

مجمع الإسكندرية: ٦٦

جوهر أرثوذكسية قرار مجمع الإسكندرية: ٦٧

صحة الحكم على تعليم نسطور: ٦٨

مجمع أفسس المسكوني عام ٤٣١م: ٦٨

ضرورة الحضور الشخصي: ٦٩

الوثائق الأرثوذكسية: ٦٩

تحديد الموضوع: ٦٩

الوثائق النسطورية: ٧٠

القرار الأول: ٧٠

القرار الثاني: ٧٠

أرثوذكسية قرار مجمع أفسس المسكوني الثاني: ٧١

الفصل الرابع

الأرثوذكسية في صورتها وجوهرها ٧٣

الأرثوذكسية ليست حكم شخص، ولا هي رأي شخص: ٧٥

الأهمية القصوى لصوت الكنيسة الجامعة، أي الكاثوليكية: ٧٦

نموذج من تسبيح واعتراف بالإيمان الأرثوذكسي: ٧٧

الطبيعة الإلهية المتحدة بطبيعة بشرية: ٧٧

مثال آخر: ٧٨

صوت مجمع نيقية في رسائل القديس كيرلس الكبير: ٧٩

ما معنى الشركة في الدم والجسد: ٨١

تجريد نسطور من الكهنوت، مع السماح له بالتناول: ٨١

الحرمان من التناول هو قرار قطع من شركة الكنيسة: ٨٢

وماذا تقول الدسقولية عن قرار الحرمان من التناول؟ ٨٣

الفصل الأول

العقيدة الأرثوذكسية

مقدمة

صاغت المجامع المسكونية العقيدة الأرثوذكسية في الفترة ما بين ٣٢٥م حتى ٤٣١م وهي الفترة التي انعقدت فيها المجامع المسكونية الثلاثة: نيقية – القسطنطينية – أفسس.

هذا يجعل من العقيدة الأرثوذكسية صوت الجماعة، وشهادة الجماعة، وميراث الجماعة. صحيحٌ أن بعض الآباء كان لهم دور المدافع والمحامي عن الإيمان مثل القديس أثناسيوس وغيره، ولكن لم يكن دور أيٍ من هؤلاء الآباء الكبار هو دور فرد واحد، بل كان دور هؤلاء الآباء هو "الشهادة" للحق من خلال الثابت، وهو "التسليم أو التقليد" الرسولي الذي استلموه من الآباء الذين سبقوهم، وهذا ما يؤكده هؤلاء القديسون في مؤلفاتهم.

وإذا كانت العقيدة الأرثوذكسية هي تراث الجماعة المسيحية "وميراث المسيح"، عندئذٍ يكون من الواضح أنَّ التفسير الفردي، كان ولا يزال هو بدايات كل الهرطقات التي ظهرت في التاريخ الكنسي.

فقد كانت الغنوسية تفسيراً خاصاً لأشخاصٍ جلبوا معهم الفلسفة اليونانية كقاعدة لتفسير الإنجيل على أساس "المعرفة الفلسفية" وحدها. فالخطر ليس في استخدام العلوم أو الفلسفة، وإنما الخطر هو أن تصبح مبادئ المعرفة وخُلاصة المعرفة الإنسانية وحدها هي القاعدة الوحيدة التي تشرح الإيمان الرسولي كله. وغني عن البيان أن الغنوسية ترفض قبول الإيمان الرسولي إذا اصطدم بالفلسفة، أو المبادئ الشائعة في الثقافة مثل تناسخ الأرواح، وشر المادة، وخلود الشر، وغيرها.

كذلك كانت الأريوسية تفسيراً خاصاً ينكر الممارسة الكنسية لسر المعمودية، وتنكر الأريوسية في النهاية "خلاص" الإنسان بواسطة تجسد الابن الوحيد.

وهكذا أيضاً جاءت النسطورية والأوطاخية وغيرهما تجسيداً للرأي الخاص الذي لا يقبل التعليم كله، بل يختار حسب أهواء صاحب المدرسة ما يتفق مع فكره الخاص[1].

(١) راجع بالتفصيل دراستنا: التمييز بين العقيدة والهرطقة والرأي، منشورة على موقع www.coptology.com

المبحث الأول

الكنيسة الجامعة، وقواعد فرز الهرطقة

أولاً: العقيدة الأرثوذكسية في المجامع المسكونية:

يؤسفني أنْ أقول إنَّ العصر الحديث الذي شهد نشر عدة دراسات جيدة في التاريخ الكنسي لم يقدِّم لنا دراسات تاريخية عن تاريخ العقيدة الأرثوذكسية، وهذه نقطة ضعف خطيرة جعلت الحوار التاريخي الأمين صعباً للغاية. وعدم وجود دراسات أرثوذكسية مصرية عن تاريخ العقيدة الأرثوذكسية هو سر تفاقم الخلاف والصدام الذي شهده العصر الحديث بين مجموعات مختلفة في داخل الكنيسة القبطية، حول مسائل عقائدية هامة، وأخرى فرعية. وعندما نعجز عن العودة إلى التاريخ الكنسي، فنحن في حقيقة الأمر نغلق الباب أمام التسليم الرسولي نفسه أو التقليد الكنسي الذي حفظه لنا التاريخ الكنسي، وهو مدون بشكل كامل غير ناقص في كتب الآباء عبر تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية. وعدم دراسة التاريخ الكنسي وتاريخ العقيدة جعل العودة إلى أخطار القرن الرابع والخامس، أي سيادة الرأي الشخصي، خطراً حقيقياً ماثلاً أمام عيوننا جميعاً لا يمكن أن ننكره، بل نراه من آنٍ لآخر.

عقيدة الثالوث، وما بينها وبين العقائد الأخرى من ارتباط:

من خلال وثائق المجمع المسكوني الأول في نيقية ٣٢٥م والمجمع الثاني في القسطنطينية في ٣٨١م يمكن أن نلاحظ أن العقيدة الأرثوذكسية الخاصة بالثالوث في جوهرها هي الإيمان بـ:

١- جوهر واحد للثالوث وثلاثة أقانيم متمايزة.

٢- المساواة التامة بين الآب والابن والروح القدس.

ومن هذا المبدأ العقيدي صاغ الآباء - مثل القديس أثناسيوس في رسائله لسرابيون "عن الروح القدس"، وقبل ذلك في المقالات الأربع ضد الأريوسيين - عدة عقائد

أخرى هامة:

أولاً: لا يمكن للإنسان أن يصل إلى ما هو إلهي – أياً كان – إلاَّ بواسطة ما قدَّمه المسيح للإنسانية، والذي يتمثل في:

١– التحرر من الموت والخطية.

٢– رد الحياة الأبدية التي سقط منها الإنسان بسبب الخطية.

٣– نوال نعمة التبني في المعمودية ومسحة الروح القدس.

٤– نعمة القيامة.

ثانياً: لا يمكن أن نصل إلى المسيح إلاَّ بواسطة الروح القدس نفسه، فهو الذي يقدِّم لنا عطايا خاصة:

١– عطية فهم الأسفار، أو الإستنارة.

٢– عطية الإيمان نفسه بلاهوت الابن المتجسد.

٣– يقودنا الروح القدس إلى "سر الإفخارستيا" وإلى المائدة السماوية لكي ننال "خبز الحياة".

٤– يغرسنا الروح القدس في الكنيسة "جسد المسيح الواحد" ويعطي لنا نعمة الشركة في جسد المسيح الكنيسة التي منها تتوزع باقي النعم مثل الكهنوت ومواهب الشفاء حسب التسليم الرسولي في كورنثوس الأولى ص ١٢، ورومية ص ١٢ وهكذا تدخل الأسرار الكنسية، وكل ما يخص الإنسان من خلق وسقوط وخلاص، في الصراع مع الأريوسية، وفي تأكيد التعليم بالثالوث الواحد بالجوهر.

عقيدة المسيح الواحد في مجمع أفسس ٤٣١م:

إن ما يُعرف بالجدل الخرستولوجي Christology هو في حقيقة الأمر جدل حول أمور عقائدية بالغة الأهمية:

أولاً: اتحاد الطبيعة الإلهية للابن الله الكلمة بكل مكونات طبيعة الإنسان ما عدا الخطية وهذا يعني:

١– إنَّ كهنوت المسيح هو كهنوت ووساطة الابن المتجسد.

٢– إنَّ الكنيسة ليست جماعة بشرية متَّحدة في الرأي والفكر فقط، بل هي

جماعة لها طبيعة جديدة هي طبيعة المسيح نفسه، وهي لذلك حقاً وبشكل حقيقي "جسد المسيح"، ليس بالمعنى المجازي (الذي يصفه البعض بأنه المعنى الروحي)، بل أيضاً بالمعنى الحسي؛ لأن أجسادنا ستقوم بسبب اتحادها بجسد الابن الكلمة الذي نأخذه في الإفخارستيا.

٣- إنَّ الإفخارستيا ليست وليمة "آكلي لحوم بشر" حسب اعتراض القديس كيرلس السكندري على نسطور، بل وليمة "آكلي جسد مَن هو الحياة" لكي ينالوا حياة المسيح نفسه.

٤- إنَّ النعمةَ هي عملٌ إلهيٌ يُعطى من خلال تجسُّد الابن، وبواسطة الروح القدس[٢].

وهكذا نرى بكل وضوح أن الجدل حول اتحاد اللاهوت بالناسوت هو في حقيقة الأمر موضوع يمس الأسرار والكنيسة. ومثل هذا وذاك، شرح الآباء - بشكل وافٍ، كما سنرى - موت المسيح وقيامته، وماذا حدث على الصليب[٣].

ثانياً: العقيدة الأرثوذكسية بعد عصر المجامع المسكونية:

لأننا لم ندرس تاريخ العقيدة المسيحية بشكل عام History of Christian Doctrines وتاريخ العقيدة الأرثوذكسية بشكل خاص، أصبح الموضوع شائكاً على الذين لم يدرسوا التاريخ الكنسي ولا قرأوا الآباء، وهؤلاء هم الأغلبية الساحقة من الشعب القبطي. ومن الثابت تاريخياً حسب شهادة الليتورجية، وهو ما تؤكده أدق المراجع إن جذور وأصول التعليم الكنسي الأرثوذكسي كله يعود إلى عصر المجامع المسكونية، ذلك أن أصل التعليم عائد كله إلى عقيدة الثالوث، ثم إلى تجسُّد الابن، وموته وقيامته، وحلول الروح القدس في يوم العنصرة. ومن هذه الينابيع، أي الثالوث والتجسُّد والعنصرة تفرَّعت كل موضوعات العقيدة من شجرة الثالوث، إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير.

---

(٢) كانت سعادتنا أعظم برسالة الدكتور وهيب قزمان عن "النعمة عند القديس أثناسيوس"، وننتظر رسالة أخرى عن النعمة عند القديس كيرلس، والرب يرسل فعلةً لكرمه.

(٣) راجع دراستنا عن موت المسيح على الصليب، منشورة على موقع www.coptology.com

ولهذا نجد أنَّ الأسرار الكنسية حسب شهادة الليتورجية الأرثوذكسية، وهي: المعمودية – الميرون – مسحة المرضى – الكهنوت – تقديس المياه في أعياد الغطاس وخميس العهد وعيد الرسل – الزيجة – التوبة والاعتراف – ثم سر الأسرار "الإفخارستيا"، هذه الأسرار، وبشكلٍ خاص، المعمودية والإفخارستيا هي التي كان لها الدور الأكبر في النضال ضد الهرطقات في القرون الخمسة الأولى. أمَّا فيما يخص العصر الحديث، فإنني أقول بكل أسف إنَّ ما وصلنا من دراسات معاصرة في مصر هو ثمرة فكر مطبوعات الإرساليات ومؤلفات الكاثوليك والبروتستانت، ولا زلنا في حاجة شديدة إلى دراسة المؤلفات الأرثوذكسية المعاصرة لعلماء اللاهوت من الأرثوذكس أمثال: J. Zizioulas. – J. Meyendorff. – G. Florovsky.

وغيرهم من الذين استطاعوا عزل فكر "العصر الوسيط" من الكتب الأرثوذكسية، وساهموا بدراسات رصينة عن الأسرار مثل الأب "الكسندر شميمن"، الذي نشرت مؤسسة النور في لبنان بعض مؤلفاته معرَّبةً عن الانجليزية والفرنسية. وحسب دراسة هؤلاء نرى بكل وضوح إنَّ لدى الآباء الذين حاربوا البدع عدة مبادئ لاهوتية هامة استطاعوا أن يحددوا بها جوهر الهرطقة، وأن يفرزوا بها التعليم السليم.

من هذه المبادئ ما نراه عند الآباء مثل القديس أثناسيوس الرسولي الذي نُشرت لأول مرة مقالاته اللاهوتية ضد الأريوسية باللغة العربية:

١– إذا كان المسيح مجرد إنسان مثلنا، فإننا لا ننال أي نعمة.

٢– إذا كان المسيح مخلوقاً مثل أنبياء العهد القديم وليس ابن الله، لا ننال نعمة التبني.

٣– إذا كان الروح القدس مثل أرواح الملائكة، أي روحٌ مخلوق، فإننا لا ننال نعمة الاتحاد بالمسيح، ولا بالآب نفسه.

وهكذا نرى أنَّ هذه المبادئ اللاهوتية تعتبر دعوةً لفحص موضوع واحد، يشمل كل ما ذكرنا، هو موضوع "الخلاص"، وهذا هو أعظم درس نخرج به من صراع القرنين الرابع والخامس.

الجدل اللاهوتي المعاصر في الكنيسة القبطية:

تمر مصر كلها منذ فترة قاربت على ما يزيد على أربعة عقود بمرحلة حرجة يلعب فيها "الدين" دوراً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً بالغ التعقيد والحساسية. وما نشأ على أرض مصر على مدى أكثر من ثلاثين سنةً تقريباً هو ثمرة تطور بطئ، يحاول فيه "الدين" العودة إلى السيطرة على كل شيء.

وقد نجد العذر لإخواننا المسلمين؛ لأن الإسلام له موقف سياسي واجتماعي من بعض القضايا السياسية والاجتماعية، ولكن المسيحية الشرقية الأرثوذكسية، وبشكل خاص مسيحية الكنيسة القبطية، لم تنشأ ولم تُولد في داخل إمبراطورية، ولم تحكم الكنيسةُ مصر، ولذلك ليس لدينا في الفكر القبطي الأصيل، أي الفكر الكنسي "أيديولوجية" خاصة بالقوة. وإذا تأملنا الأمثال الشعبية، بل وروح الصلاة في الليتورجية القبطية مثل "مراحمك يا إلهي"، أو ذكصولوجيات باكر وصلوات القداس استطعنا أن نرى كيف يحيا القبطي الصليب والقيامة، ويتأمل الكون الذي يُحيي فيه المسيح كل الكائنات: "نفخ المسيح في الأشجار حتى أزهرت"[٤]، كما أن رقة ووداعة المسيح تتجلى في صلواتنا؛ لأننا لم نكن يوماً من الأيام "كنيسة إمبراطورية تحكم العالم"، ولم يكن لدينا أية أطماع سياسية، بل ظل لقب "لُبَّاس الصليب" من أعظم جوائز الحياة الروحية عندنا، وظلت أيقونات الشهداء عبر كل عصور تاريخ مسيحية مصر تتجلى بمجد العطاء والمحبة.

مجمل التراث القبطي الحديث:

يبدأ فكرنا اللاهوتي المعاصر بالإيغومانس فيلوثاوس إبراهيم ... وإذا تصورنا أن هذا الفكر مثل قناة ماء، فإنه يمكننا أن نلاحظ أنَّ ما يتدفق في هذه القناة هو عبارة عن خليط من العناصر الآتية:

١- ما تبقّى من فكر العصر الوسيط الذي يبدأ بالأسقف ساويروس ابن المقفع، وينتهي عند الأنبا يوساب الأبَح مروراً بأولاد العسال، وأبو البركات

(٤) الأبصلمودية السنوية، تسبحة نصف الليل، لُبش الهوس الثاني (لحن مارين أو أونه/فلنشكر المسيح).

ابن كبر، ثم اللاهوتي القبطي الأصيل الأنبا بولس البوشي.

٢- ما نقل عن كُتب الروم الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت معاً دون تمييز، مثل:

* كتاب علم اللاهوت للقمص ميخائيل مينا.
* كتاب أسرار الكنيسة السبعة للأستاذ حبيب جرجس.
* محاضرات في اللاهوت النظري المعربة عن محاضرات اوجين دي بليسي.
* الجوهر في بطلان المطهر لـ دلوار المنفلوطي.

٣- ما جاءت به نهضة مدارس الأحد، وهي أول محاولة في تاريخ مسيحية مصر للعودة إلى تراث الإسكندرية الذي انقطع عنَّا بعد القرن العاشر .. وبدأت هذه العودة بكتاب "حياة الصلاة الأرثوذكسية"، وبعض مؤلفات الأب متى المسكين.

٤- ما تُرجم من مؤلفات الآباء بجهود ذاتية عن اللغات الأوروبية الحديثة، وأهم ما تُرجم هو كتاب "تجسد الكلمة" للقديس أثناسيوس الرسولي للقمص مرقس داود، ثم ما جاء بعد ذلك ونشره ولا يزال مركز دراسات الآباء بالقاهرة.

٥- ما نُقل عن مؤلفات اليونان والروس الأرثوذكس كالأب ليف جيلليه وغيره في مجلة "النور"، ومطبوعات ومنشورات النور، أو ما تم تعريبه في مصر.

٦- التراث العربي المسيحي الذي بعثه حياً الأب سمير خليل اليسوعي، وهو جزء هام من حلقات الفكر القبطي والمسيحي الشرقي بشكل عام، وهو يؤكد انقطاع الصلة بين العصر الوسيط وعصر آباء الإسكندرية ما عدا مقالات الأنبا بولس البوشي.

حصاد المائة سنة الأخيرة:

ماذا حصدنا من هذا التيار المتدفق خلال المائة سنة الأخيرة؟

بدأت صورة تراث ١٩٠٠ سنة تظهر بشكل أوضح. فلم تكن مؤلفات القديس

كيرلس السكندري معروفةً لنا، فتم تعريب كتب كاملة مثل: شرح تجسد الابن الوحيد – المسيح واحد – رسائل القديس كيرلس – شرح إنجيل يوحنا ..إلخ

وكشفت مؤلفات الآباء ضمن ما كشفت عن:

١- مصطلحات لاهوتية لم تكن شائعة في كتب العصر الوسيط مثل "الشركة في الطبيعة الإلهية"، و"شركة أقانيم الثالوث"، و"تأليه الإنسان". ولأن هذه العبارات لم تكن مألوفة لدينا، فقد كان يجب الاهتمام بقراءة الأصول التي نُقلت عنها هذه التعبيرات والمصطلحات، ولكن تم الانقضاض عليها دون مراجعة.

٢- كما كشفت مؤلفات الآباء عن شرحٍ للعقيدة الأرثوذكسية لم يكن معروفاً عندنا أيضاً، وكان أهم ما وصلنا هو العودة إلى المعنى الصحيح لكلمتي "أقنوم، وجوهر" في الثالوث القدوس[٥] .. فقد ساد في العصر الوسيط – وحسب دراسة الأب سمير خليل – مصطلحات لاهوتية عربية، تطورت على يد الشيخ يحيى بن عُدي (٨٩٢م — ٩٧٤م)، وغيره من الذين قاموا بدور كبير في نشر كتب دفاعية هامة عن عقيدة وتعليم المسيحية. وهكذا يكتب الأب سمير خليل عن يحيى بن عدي: "إن أبا زكريا يحيى لم يذكر الثالوث أبداً في مقالته. لكن القارئ المسيحي يفهم، من خلال عرضه للموضوع، إن الجوَّاد هو الآب، وأن الذي يتصف بالحكمة هو الابن، والذي يتصف بصفة القدرة هو روح القدس. وهذه نظرية فلسفية لتقديم الثالوث، ليس إلاَّ"[٦].

ويقدِّم الأب سمير خليل بعض نماذج من محاولات المدافعين المسيحيين، فيقول: "وكثيرا ما قدَّم المفكرون المسيحيون نظريات، حاولوا من خلالها توضيح معنى الثالوث. فنرى عبد المسيح الكندي مثلاً (نحو سنة ٨٣٠م) يقدم الله بصفته "جوهر، حي، عالم". وبولس الإنطاكي بأنه "شيء، حي، ناطق". وإيليا النصيبي بأنه "جوهر، حي،

(٥) راجع بالتفصيل كتابنا "حوار عن الثالوث" منشور على موقع www.coptology.com.

(٦) التراث العربي المسيحي – مقالة التوحيد للشيخ يحيى بن عدي، حققها الأب سمير خليل ١٩٨٠ ص ١٢٦.

عالم"، .. وغيرها من الثلاثيات. كلها محاولات فلسفية. ولا يظن أحد من هؤلاء المفكرين أن هذه الثلاثية التي يقدِّمها هي الثالوث، وإنما يقدمها للقارئ (لا سيما القارئ المسلم) ليقرِّب الثالوث إلى مفهومه"[٧].

وقد قدَّم الأب سمير شرحاً لأصل هذه الثلاثيات، واثبت أنها تعود إلى الفيلسوف الأفلاطوني المحدث "برقلس" (ولد عام ٤١٢ – توفى ٤٨٥)، بل أثبت الأب سمير أن يحيى بن عُدي ترك شرح الثالوث الذي تبناه وعاد إلى "العقل والعاقل والمعقول"[٨].

وهكذا يظهر واضحاً للعيان تطور أسلوب الكتابة في العصر الوسيط واختلافه عن عصر الآباء، وهذه نتيجة حتمية للظروف والمناخ والأسباب التي تدعو المدافعين من (النصارى) للرد على اتهامات فلسفية، بردود فلسفية أخرى من ذات النبع الذي استقى منه المهاجمون، وهو كتب أرسطو وإيساغوجي وبرفوريوس.

التمييز بين الدفاع عن الإيمان، وشرح الإيمان:

لابد أن يستقر في أذهاننا أن من يشرح الإيمان لغير المسيحيين ويحاول تبرئة الإيمان المسيحي من تهمة "الشِّرك"، ليس كمن يشرح الإيمان للذين يمارسون الحياة المسيحية، ويشتركون في الأسرار الإلهية، ويعيشون داخل الكنيسة المقدسة. وإذا قال الشيخ يحيى بن عُدي إنَّ الثالوث هو صفات ثلاثة هي "الجود، والحكمة، والقدرة"، أو إنه "العقل، والعاقل، والمعقول"، فإن هذا القول يعجز عن أن يشرح لنا تجسُّد الابن، ونعمة التبني في المعمودية، وتناول جسد الرب ودمه في الإفخارستيا. وببساطة شديدة لا يمكننا أن نرشم ذواتنا بعلامة الصليب ونقول: باسم الجود والحكمة والقدرة، أو نقول: باسم العقل والعاقل والمعقول!!!

وقد جاءت محاضرات اللاهوت النظري للأب أوجين دي بليسي، وقبلها مؤلفات العصر الوسيط لتقول إنَّ الأقانيم صفات ذاتية لجوهر الله، وإنَّ هذه الصفات هي "الوجود – العقل – الحياة". هذا شرحٌ دفاعيٌ عن الإيمان، وليس شرحاً للإيمان

(٧) المرجع السابق.

(٨) المرجع السابق ص ١٢٧ وما بعدها.

نفسه، إنه ردٌّ على اتهام، وليس الحقيقة، ذلك أن تحوُّل الأقنوم إلى "صفة ذاتية" – مهما كانت باقي الكلمات التي تضاف إلى كلمة "صفة" – هو تحوُّل الشخص والكائن إلى شيء آخر – ليس شخصاً – له كيان ووجود "كصفة" في داخل جوهر انعدمت فيه كل مظاهر وتصرفات وحرية الشخص، فقد تحوَّل الآبُ إلى وجود، وهي صفة يمكن أن تُنسب إلى أي كائن، حتى الكائنات غير العاقلة مثل الأحجار والأشجار، فكل الأشياء تشترك في هذه الصفة. وتحوَّل الابن إلى عقلٍ، وهي قدرة تُنسب للبشر. وكلمة العقل والعاقل سواء أكانت صفة أو اسم أو اسم فاعل لا تغيِّر من الحقيقة نفسها، ولكن العبرة بالألفاظ التي تعبِّر عن الحقيقة بالفعل، وهكذا الأمر أيضاً مع صفة الحياة بالنسبة للروح القدس.

وهكذا – إذا استخدمنا هذا الشرح — يحق لنا أن نتساءل: كيف قدَّم المسيح "حياته"، وكيف "نحيا به" وقد أصبح صفةً مجردةً؟ واضح أنه سؤالٌ لا يمكن الإجابة عليه بالمرة إذا كان المسيح مجرد صفة، ولكن يمكن الإجابة عن هذا السؤال فقط، إذا عدنا إلى التعليم الأرثوذكسي عن أقانيم وأشخاص الثالوث.

ولذلك لم يكن غريباً أن يولد عندنا جدل حول "الشركة في الطبيعة الإلهية" في القرن العشرين. والذين أنكروا الموضوع كله وقالوا – دون العودة إلى كتب الآباء – إنَّ هذا الموضوع غريبٌ على تراثنا الشرقي، كشفوا عن حقيقة انتمائهم إلى شريحة المائة سنة الأخيرة؛ لأن حتى القس زكريا ابن سبّاع مؤلف "الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة" وهو من آباء القرن الثالث عشر، قال بشركة البشر في "أخلاق الله".

والذين قالوا إن الشركة في الطبيعة الإلهية مستحيلةٌ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يكون كلي المعرفة وأزلي، كشفوا عن أنهم يؤمنون بصفات جوهر الله، وليس بأقانيم جوهر الثالوث، والفرق هائل بين الصفة والأقنوم، وبالتالي أثبت هؤلاء أنهم أبعد بكثير عن إيمان الآباء إذ لم يدركوا أن الدفاع عن الإيمان وشرحه لغير المؤمنين، يختلف عن شرح الحق نفسه.

وتظهر خطورة تصور الأقانيم كصفات – وهو على ما قلنا تصور غير أرثوذكسي– من النتيجة الخاطئة جداً التي يؤدي إليها هذا التصور، والتي مؤداها أننا نشترك في

صفات اللاهوت. واعتراض هؤلاء صحيح من الناحية الفلسفية، ولكنه خاطئ جداً عقائدياً؛ لأن الشركة في الصفات تحكمها الطبيعة، فلكل طبيعة حدود وقوانين يخضع لها الكائن الذي ينتمي إلى هذه الطبيعة، بينما الشركة في الطبيعة الإلهية بواسطة الأقانيم هي شركة شخصية لا تخضع لقوانين وحدود الطبيعة، بل تخضع للعلاقة الشخصية، ولعطاء المحبة الذي أُعلن في المسيح. ومن هنا يظهر لنا أن موضوع النظر في التراث المسيحي المصري كله بكافة ما جاء فيه من صحيح ومزوَّر هو قضية كبرى لا يملك أي شخص مهما كانت قدراته على أن يتولاها بنفسه، بل هي حركة شعب أو جماعة تفتش عن تراثها وتنقي الفكر.

مثال صارخ على الشركة في الصفات:

قلنا إن الشركة في الطبيعة الإلهية تخضع لإرادة وعطاء ونعمة الثالوث، وهي لذلك، ليست شيئاً ولا صفةً ولا هدفاً يمكن نهبه والاستيلاء عليه ... ومع أن الذين يعارضون الشركة في الطبيعة الإلهية، يشجبون كل من يتكلم عنها بحجة أنها تؤدي إلى الشركة في الصفات، إلاَّ أنهم يطرحون طرحاً فلسفياً يظنونه عقائدياً لا يختلف — في النتيجة – عما يرفضونه. ووجه المأساة في هذا الطرح هو أنه خاص بـ"الخطية"، ذلك الموضوع الرئيسي الذي نال أكبر حظوة في بعض مؤلفات القرن العشرين.

فعليك أيها القارئ العزيز أن تتأمَّل هذا التسلسل الفلسفي غير الدقيق الذي يصدر عن اعتقاد بأن الله هو مجموعة صفات، هي في أغلب الأحوال ثلاثة صفات فقط:

* الله غير محدود.
* إذا أخطأ الإنسان إلى الله، صارت خطية الإنسان غير محدودة؛ لأنها موجَّهة إلى الله غير المحدود.
* عند ذلك يُعاقب الله الإنسان بعقوبة تتناسب مع الاعتداء عليه، وهي قصاص غير محدود.

فإذا كانت خطية الإنسان هي خطية غير محدودة لأنها موجَّهةٌ ضد الله (الذي يُوصف بأنه غير محدود)، ألا يعتبر هذا أساساً فلسفياً لتأليه الخطية، وبالتالي – عن

طريق الخطية – نصبح مثل الله، بعد أن تعذَّر علينا أن نكون مثله بالنعمة؟!!!

إنَّ هذه القضايا الثلاثة وإنْ كانت تبدو منطقية تماماً، إلاَّ أنها – مع ذلك – خاطئة فلسفياً، ولا يمكن قبولها عقائدياً.

فالقضية الأولى: "الله غير محدود"، قضية غامضة جداً؛ لأنها لا تشرح ما هو المقصود بـ "غير محدود"، وهل الله غير محدود في قدرته، محبته، رحمته .. الخ. وبالتالي فهي مرفوضة فلسفياً؛ لأنها لا تشرح عدم المحدودية. لذا من الأفضل أن نصف الله بأنه مالئ السموات والأرض.

والقضية الثانية: "خطية الإنسان غير محدودة"، وهي قضية ترفع الخطية إلى مستوى اللاهوت، وتجعل الإنسان بالخطية إلهاً؛ لأنه يصبح مثل الله قادراً على أن يأتي أعمالاً غير محدودة.

والقضية الثالثة: "القصاص غير المحدود" وهي قضية أكثر غموضاً؛ لأن فكرة العقوبة التي تتناسب مع الاعتداء والجرم هي فكرة سياسية بحتة لا تنتمي إلى محبة الإنجيل، بل تنتمي إلى العصر الوسيط في أوربا إبان عصر الإقطاع، وهو العصر الذي ميَّز بين قتل رجل الشارع وقتل الكبار من النبلاء[9] وبالتالي لا علاقة لها بموضوع الخطية من الناحية العقائدية.

وعقائدياً يمكننا أن نسأل: ما هي خطية الإنسان إذا لم تكن موجهة إلى حياة الإنسان نفسه، وإلى كيانه المخلوق من العدم؟ وما ترتب على ذلك من آثار وقعت على الإنسان عندما أخطأ؟ .. تقول صلوات الليتورجية: "تركت عني ناموسك برأيي"، "وتكاسلت عن وصاياك"، وفي النهاية "أنا اختطفت لي قضية الموت". أليس هذا هو ما جرَّته الخطية على الإنسان؟ فإذا تحول موضوع الخطية إلى بحث أثار الخطية على الله، وتركنا الإنسان وأبعدناه تماماً عن الموضوع، فكيف يمكننا – عندئذٍ – أن نتكلم عن تجسُّد الكلمة؟

(9) L.W. Grensted.

أثر هذا الشرح على موضوع الخلاص:

مع تحول الله إلى صفات، تم طرح موضوع الفداء بشكل جديد يغري عقول السذج والبسطاء، ويحول موت المسيح من علاقة شخصية بالله، إلى موضوع عقلي أجوف لا يخلق في الإنسان أي تذوُّق لمحبة الله.

فإذا كان الله غير محدود،

وكانت الخطية غير محدودة،

وكان القصاص غير محدود،

فلا شك أننا – إذن — في حاجة إلى مخلِّص غير محدود يتحمل القصاص ويدفع الترضية ويتم بذلك خلاص الإنسان. وغني عن الذكر أن هذا التصور يخفي تحته الكثير من الممارسات السياسية والاجتماعية، ذلك أن فكرة الكبير الذي يتعطف على المعتدي ويقوم بدفع الغرامة عنه هي فكرة آتية من عصر الإقطاع الذي لم يعرف المحبة الإنجيلية، أي محبة إنجيل يسوع المسيح.

والخطأ الأول في هذا التسلسل، خاص بالله نفسه الذي خاض هذه المحنة دون أنْ يعرف أنَّ الإنسانَ قادرٌ على الاعتداء عليه وإهانته، ومع ذلك خلقه لكي يخلق لنفسه مشكلة ... !!

وإذا كان الله يحدد العقوبة والفدية والقصاص حسب المستوى الإلهي، ولا يأخذ بعين الاعتبار المستوى الإنساني بالمرة، فأين هذا من مستوى مبادئ القانون والشريعة الوضعية التي تراعي ظروف الجاني ومستواه وقدراته العقلية .. الخ.

وعندما يجيء تحديد الله للخطية والعقوبة والفدية والقصاص على أنها كلها تمس وجوده وكيانه ولا تخص الإنسان نفسه، ألا يجب علينا أن نسأل: ولأي غاية خلق اللهُ الإنسانَ؟ .. وماذا كانت الحاجة إلى خلق كائن قادر أن يهين الله نفسه، ويملك قدرة على الإهانة بحيث يجعل الله نفسه يسقط في براثن شر الإنسان، ويجد نفسه أمام معضلة يصعب حلها؟

والخطأ الثاني، هو خطأٌ فلسفيٌ محض؛ لأن غير المحدود لا يتناسب مع حجم

الإنسان، فالإنسان محدود. وإذا قلنا أن كل خطية صارت بدورها خطية غير محدودة – حتى بعد صلب المسيح – فقد تحول معيار غير المحدود إلى نقد خطير للفكر المسيحي كله. .. تأمل خطايانا غير المحدودة حجماً وكماً ونوعاً، وقد صارت تملأ الأرض والسماء وتدخل إلى كل مكان في الكون .. وتزاحم الله غير المحدود!!!

والخطأ الثالث، يتعلق بحقيقة عمل الفادي الذي أصلح الإنسان وجدَّده ولم يصلح الله؛ لأن خطية الإنسان لا تجعل الله في حاجة إلى تجديد، بل تجعل الإنسان في حاجة ماسة لمحبة الله ...

أليس هذا هو حصاد الفكر الفلسفي النابع من العصر الوسيط، والذي حوَّل المسيحية إلى نظام ديني للدفاع عن الوجود الخاص لطبقة النبلاء والأشراف الذين لا يجب أن يمسهم إنسان؛ لأن قيمتهم مثل الله، تفوق الحصر.

وإذا كان من الواضح أن هذه التفسيرات قد أسقطت التعريف الآبائي القديم للخطية بأنها غياب الخير وانعدام الخير، وبالتالي تحول ما هو غير كائن وعدم، إلى ما هو كائن وحقيقي، بل وغير محدود مثل الله، فقد أسقطت أيضاً دور الأسرار الكنسية في الخلاص، بل أهملت تماماً موضوع النعمة، وأغلقت الأبواب أمام إعلان المحبة الإلهية التي لا قيود لها ولا شروط حسب كلمات رسول المسيح في ١كو١٣: ١ – ٧.

انعدام التمييز هو مشكلتنا الحقيقية

إن مشكلتنا الأساسية ليست في الاستعانة بالكتب الأوربية .. فهذا ما يحدث على كل مستويات الحياة في العالم كله .. ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في:

١– سيل الاتهامات الموجهة إلى هذه الكتب دون تمييز الصواب والخطأ.

٢– عدم التمييز بين الدفاع عن الإيمان، وشرح العقيدة.

٣– عدم ربط ما يُقال ويكتب بالحياة الأرثوذكسية الروحية، أي بما تقدِّمه الأسرار والليتورجية.

٤– عدم القيام بحفريات في قطاع التراث كله لكي نصل إلى: مصطلحات الآباء – شرح الآباء – تطور الفكر اللاهوتي بعد الآباء.

ثالثاً: مصر والكنيسة في عصر الإرهاب الأصولي:

لعل أخطر ما حدث في القرن العشرين الذي غادرنا منذ عقد من الزمان هو قتل المعارضين واغتيالهم. ولأن هذه الدراسة لا تُعنى بالخوض في السجل السياسي لمصر، نكتفي بالإشارة إلى تفشي ظاهرة الإرهاب باسم الله، وباسم الدين، وبأسماء أخرى تمارس الإرهاب على كافة المستويات. لقد توقفت كثيراً أثناء إعداد هذه الدراسة عند ذلك الحدث البشع الذي راح ضحيته أبرياء كنيسة أبو قرقاص في داخل الكنيسة، وما تلاه من حوادث أخرى[١٠]... قتلٌ أعمى عشوائي يظهر خلفه وجه الإرهاب المسلح ... قتل من يختلف معه في الرأي أو العقيدة ... فهل أثَّرت هذه الأحداث على الفكر القبطي نفسه، وهل أصبح لدينا ما يمكن أن نسميه بظاهرة الإرهاب الأصولي عندنا؟

العلاقة بين الهرطقات والفكر الأصولي:

يمتاز الفكر الأصولي "بالبساطة المطلقة"، وبقدرته الهائلة على اختزال كل الأفكار المعقَّدة إلى فكرة واحدة بسيطة يمكن نشرها والدعوة إليها بشكل يجعلها من "البديهيات"، وهذا هو مكمن الخطورة ... فقد وجدنا الفكر الأصولي يتحصن دائماً في نصٍ واحد أو عدة نصوص تُوضع بعناية معاً من أجل إبراز فكرة واحدة بسيطة يدعو إليها الداعية الأصولي .. قرأنا هذا في كتب وعظات مسيحية وإسلامية .. وهذه ظاهرة وطنية تسهم فيها بنصيب وافر "سطحية الفكر الديني" نفسه وارتفاع نسبة الأمية، ويضاف إليها ما هو أخطر من هذا، وهو سلاح التكفير وانعدام حرية التفكير الذي يجد حصنه المنيع في "التلقين"، و"الحفظ عن ظهر قلب".

هكذا وجدنا الأريوسية تختزل بنائها الفكري في عبارة واحدة، أو فكرة واحدة، هي إنكار مساواة الابن للآب. كذلك اختزلت النسطورية نفسها في إنكار لقب "والدة الإله". وهنا مكمن الخطورة، ذلك إن ما يبدو بسيطاً وبديهياً، إنما يخفي خلفه بناءً

(١٠) منذ حوالي سنة تقريباً، في ليلة عيد الميلاد ٢٠١٠ قُتِل ستة أقباط كانوا لتوهم قد خرجوا من الكنيسة بعد صلاة القداس، وقبل أن يمر عام على مقتلهم تم تفجير كنيسة القديسين بالإسكندرية، وقبل أن تجف دماء ضحايا هذا التفجير فوجئنا بشرطي مدينة سمالوط يطلق النار في القطار فيردي أحدهم قتيلاً ويصيب آخرين، وكلهم من الأقباط.

متكاملاً. وما ينطبق على الهرطقة ينطبق على الفكر الأصولي، فكلاهما يخفي جبلاً هائلاً من الجليد تحت ما يبدو بسيطاً على السطح[١١].

فنحن نعلم أن الأريوسية ليست مجرد شعار، بل هي مدرسة فلسفية متكاملة لها تعليمها عن الأسرار والكهنوت والشريعة اليهودية والإنسان والجسد والعقل والإعلانات الإلهية ... وكل هذا يفسر بشكل واضح نقطة صدام أريوس مع الكنيسة الجامعة، وهي إنكار أزلية الابن ... ولا شك أن الأريوسية تعتبر محاولة جريئة وخاطئة لتفسير كل ما في المسيحية. ووجه الخطأ والجرأة فيها أنها تبدأ بنفي مكانة الإنسان عند الله ... فهو مخلوق من العدم لا يجد لدى الله أي مكانة أو حظوة، ومن ثم لا يخفى الأساس الفلسفي الذي تبني عليه الأريوسية تعليمها، وهو الأساس اليوناني القديم الذي يقوم على ثنائية الروح والمادة، وتصوُّر وجود هوة كبرى تفصل السماء عن الأرض، والله عن الخليقة. فطبقاً لهذا الأساس الفلسفي لا يمكن لله أن يخلق العالم المادي المنظور، ولذلك يخلق الله عدة آلهة أقل منه لكي تقوم هي بهذا العمل المنحط الشنيع ..

ومن هنا، إذا جاء الإنجيل ببشارة التجسد، أي تجسد الله .. يتعذَّر على أريوس مصالحة مكانة الإنسان المنحطة وثنائية المادة والروح مع عبارة الرسول يوحنا "الكلمةُ صار جسداً".

ونفس الكلام – مع تعديل جوهري – ينطبق على النسطورية.

كان نسطور يجد صعوبةً بالغةً في تصوُّر حلول الكلمة في أحشاء العذراء ... فالله لا يولد من امرأة لأن هذا مستحيل، بل لا يليق ... وهي ذات الفكرة اليونانية القديمة التي تتصور انفصال المادة عن الروح واستحالة وجود ما هو إلهي في المادة. وهكذا أنكر نسطور فاعلية "سر الشكر"، وأنكر كهنوت المسيح، وأنكر الشركة في الطبيعة الإلهية، وأنكر وحدة الكنيسة جسد المسيح وفاعلية النعمة .. كل هذا

(١١) من الجدير بالذكر أن الإرهاب الفكري يمكنه أن يستخدم نفس السلاح الذي يستخدمه الفكر الأصولي، فكما يمكن اختزال الهرطقة في كلمة أو عبارة، صار من الممكن اختزال رأي أي إنسان في عبارة أو جملة تصبح علامة على صحة الإيمان أو الكفر أي الهرطقة، دون بحث عن حقيقة ما يُشاع. وهذا هو الفرق بين الإرهاب الفكري، والفكر الأصولي الذي يتبنى مواقف إرهابية في الغالب الأعم.

مصدره المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها نسطور ومن قبله أريوس، وكلاهما جزء من مدرسة فكرية كاملة.

وهنا تظهر خطورة الاختزال، فعندما تختزل كل هذا في عبارة واحدة أو كلمة معينة، فإننا نحرم القارئ والباحث والمستمع من استيعاب الأساس الذي قامت عليه الهرطقة، وهو عادةً فكرةً فلسفيةً أو دينيةً مشوهة. ويهمنا في هذا المقام أن نشير إلى أن بداية الفكر العلمي التاريخي لدراسة الهرطقات القديمة كانت هي "مذكرات" أستاذنا نيافة الأنبا غريغوريوس .. ولكن هذه المحاولة توقفت بعد استقالته .. وعاد الإرهاب الفكري يدق بعنف على عبارات أو كلمات وأحياناً كلمة واحدة ... ولم يتوقف، لأن الخصومة الشخصية قد لبست الطابع العقيدي.

رابعاً: كيف تفرز الكنيسة الجامعة الهرطقة:

من مقالات القديس أثناسيوس الرسولي ضد الأريوسيين نعرف أن الكنيسة تقوم بفرز الهرطقة بناءً على القواعد الآتية:

أولاً: تعارُض تعليم الهرطقة مع الممارسة الكنسية ... فقد كانت المعمودية هي حجر الزاوية الذي استند عليه الآباء في ردهم على الأريوسية ومقاومتهم لها. فالدعوة القائلة بأنَّ الابنَ مخلوقٌ تجعل الكنيسة غير قادرة على أن تُعمِّد باسم خالق هو الآب ومخلوق هو الابن؛ لأن المخلوق لا يملك أن يعطي "نعمة التبني"، في حين أن الممارسة الكنسية تقود إلى السر، وإلى النعمة، وإلى مصدر هذه النعمة، وهو المسيح نفسه.

ثانياً: يبرز القديس أثناسيوس الفرق بين تفسير أريوس باعتباره تفسيراً شخصياً، وتفسير الكتاب المقدس حسب "التفسير أو المعنى الكنسي".

والتفسير أو المعنى الكنسي للكتاب المقدس يرتكز على قواعد ثابتة في التاريخ وفي الليتورجية الكنسية، فهو أولاً قائم على قانون الإيمان الذي تعترف به الكنيسة. ولما كان قانون الإيمان أو قاعدة الإيمان تؤكد الإيمان "بإله واحد"، صارت دعوى وجود إلهين: واحدٌ أزلي والثاني مخلوق، دعوى مرفوضة، مهما

كان عدد نصوص الكتاب المقدس التي يحشدها الهراطقة، فقد لاحظ أيضاً القديس باسيليوس الكبير أنَّ الهراطقة هم أكثر الناس اهتماماً بحشد أكبر عدد ممكن من نصوص الكتاب المقدس.

ويقول معلمنا القديس أثناسيوس إن العبرة هي في قاعدة التفسير، وهي القاعدة الثانية التي تتفرع من قانون الإيمان، وهي تؤكد أزلية الابن وخضوع الابن للزمان والناسوت، وبالتالي لدينا نوعين من نصوص الكتاب المقدس، نوعٌ خاص بالمسيح كإله أزلي، ونوع ثان خاص به كإنسان[١٢].

ثالثاً: يسأل الآباء دائماً عن غاية الهرطقة، وهي غاية يحصرها الآباء في نقطة واحدة، وهي المصير الأبدي للإنسان .. إمَّا أنْ ينال الإنسان الشركة في الحياة الإلهية لكي يحيا بهذه النعمة إلى الأبد، وإمَّا أنه سوف يُعطى حياةً أرضيةً فيها متاع ونعم أرضية .. إمَّا أن يصبح ابناً أبدياً لله، وإمَّا أن يظل هو ذلك العبد القانع بما يملك من نعم وعطايا، غير الحياة الإلهية .. وقد قال الآباء جميعاً الكثير عن المصير الأبدي أو الخلاص، فإذا لم يكن المسيح هو الابن من جوهر الآب، تحولت نعمة التبني إلى عطية أرضية. وإذا لم يكن المسيح هو أقنوم الكلمة المتجسد الذي اتحد فيه اللاهوت بالناسوت، تحولت الإفخارستيا إلى "مائدة آكلي لحوم بشر" حسب تعبير القديس كيرلس السكندري .. فما هو مصير الإنسان في الهرطقة، وما هو مصير الإنسان في الأرثوذكسية؟ أو بعبارة أخرى كيف تشرح الهرطقة موضوع الخلاص، وكيف تعلن الكنيسة البشارة بالخلاص؟

وأخيراً: إذا وضعنا هذه المبادئ الثلاثة معاً، وجدنا أن الدفاع عن الأرثوذكسية ليس دفاعاً شخصياً ضد أشخاص، بل هو دفاعٌ عن الممارسة، وهي ما يحدث كل يوم في الليتورجية، ودفاعٌ عن المعنى الكنسي الذي يفسِّر الخلاص ومصير الإنسان النهائي.

(١٢) راجع بتفصيل أوفى: مجال الإيمان أو قاعدة تفسير الكتاب المقدس عند القديس أثناسيوس الرسولي. د. جورج حبيب بباوي: المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي، منشور على موقع www.coptology.com.

المبحث الثاني

كيف كانت الكنيسة تحاكم الهراطقة في الماضي وماذا يحدث في الحاضر؟

لم تكن الكنيسةُ قادرةً في أي عصر من العصور السابقة على إعلان قرار حرمان من الشركة أو فرز أو قطع إلاَّ بعد محاكمة. وقد استعارت الكنيسة إجراءات المحاكمة من التشريع الروماني القديم الذي كان يطبَّق في كل أرجاء الإمبراطورية، ويمكننا أن نلخصها في الآتي.

أولاً: تحديد الاتهام، وذلك بالرجوع إلى الكتب والمقالات التي نُشرت. فالنص أو النصوص هي دعامة الاتهام والدليل على وجود تهمة.

ثانياً: الشهود على ما جاء بالكتب أو المقالات.

ثالثاً: إعلان المتهم بالاتهام، وترك فرصة لتحديد الجواب والرد، قد تطول هذه الفرصة إلى أربعين يوماً.

رابعاً: إذا تراجع المتهم عن أفكاره وأنكرها، فإنه لا يمس بسوء. وإذا أعلن تمسكه بها قُدِّم إلى المحاكمة.

خامساً: كانت المحاكمة علنية، يحضرها المتهم والذين يدافعون عنه، ويشترك فيها الشعب. وكان إثبات الخطأ يتم على أساس من الممارسة الكنسية، ومن القانون الكنسي، وكتابات الآباء، فهذا كله هو ما يشكل دعامة الحكم.

أمَّا ما يحدث لدينا الآن فلا يمُتُّ إلى تلك القواعد بصلة، وهكذا لم نرتفع إلى ما كان سائداً في القرون الخمسة الأولى، ولا حتى ارتفعنا إلى ما كان سائداً في اليهودية من أن الحكم يكون على فم شاهدين أو ثلاثة، بل تراجعنا إلى ما دون المسيحية، بل وتراجعنا حتى إلى ما هو أقل من التشريع الروماني، وهو تشريع الأمم الذين نطلق عليهم الوثنيين، وقد كانوا – كما نعرف – أكثر حرصاً على حرية الرأي وصيانة

حق المواطن، وخصوصاً في الأمور التي تمس الفكر. وبالرغم من أنهم كانوا يميلون إلى التعامل بوحشية في الأمور التي تتعلق بأمن الإمبراطورية، وكانت جريمة التمرد أو الحض على العصيان المدني – ناهيك عن الثورة المسلحة – تقابَل بكل عنف يملكه الحاكم الروماني، إلاَّ أن القانون كان يحمي حرية القضاء.

الثقافة السائدة والاتهام بالهرطقة:

ما أشبه الليلة بالبارحة، وما أغرب الانسجام بين الماضي والحاضر .. لقد وقع الإمبراطور المسيحي قسطنطين في براثن الأريوسية؛ لأن الأرثوذكسية كانت تهدد النظام الإمبراطوري كله. ذلك أن روما كانت تجلس على قمة هرم عظيم أسمه الإمبراطورية الرومانية، يشمل أغلب أوربا الشرقية والغربية، ومنطقة حوض البحر الأبيض من بلغاريا حتى الخليج العربي، ثم إفريقيا الشمالية حتى بلاد النوبة .. وكانت القوة العسكرية الرومانية هي العامود الفقري لهذه الإمبراطورية المترامية الأطراف .. ولكن جاء الإنجيل لكي يهدم هذا الهرم .. كان الإمبراطور إلهاً يُعبد بشكل سياسي وديني يعبِّر عنه القَسَم العسكري الروماني، أي "القَسَم العسكري باسم الإمبراطور"، وتقديم البخور والذبائح إليه مع الآلهة الأخرى .. وكان لقب "رب"، و"إله" من ضمن الألقاب الخاصة بالإمبراطور.

ولكن جاء الإنجيل ليقول إنَّ الرب تجسَّد، وإنَّ الله صار بشراً، وإنَّ البشر جميعاً واحداً متساوون بمساواةٍ مصدرها المسيح نفسه حسب عبارة الرسول بولس: "في المسيح يسوع ليس ذكر ولا أنثى ليس عبد ولا حر .. بل الجميع واحد". وبدأت قمة الهرم تنظر في قلق إلى هذه الدعوة التي تريد أن تجعل من رجل الشارع والعبد صنواً للإمبراطور. وتجعل من الذين تحاصرهم الفرق الرومانية وتقودهم للعمل في بناء الجسور والطرقات تحت السياط بالسخرة، متساوين مع الرجل النبيل والشريف.

وجاء المجمع المسكوني الأول ٣٢٥م لكي يؤكِّد تعليم الإنجيل.

وقد لاحظ القديس أثناسيوس في دفاعه الأول إن الإمبراطور قسطنطين يتردد في قبول تعبير وقانون الإيمان النيقاوي، ولم يتردد أثناسيوس أنْ يقول للإمبراطور إنَّ

تعليم المجمع النيقاوي هو تعليم يهدد سلامة الإمبراطورية القائمة على الظلم والقسر والقهر. فقد أصبح للعبد – بسبب التجسد — ذات كرامة ومصير ومقام الإمبراطور .. ولكن كان هذا مرفوضاً .. وأفرزت ثقافة الطبقة الحاكمة ومعها الفلسفة وروح العصر نفسه، الهرطقة الأريوسية .. وجاءت سلطة الطبقة الحاكمة بعدة أباطرة حاول كل منهم فرض الأريوسية بقوة السلاح، لكنهم فشلوا؛ لأن الشعب ذاق طعم حرية الإنجيل، ووجد في الكرامة الجديدة، أي المقام الذي وُهِبَ من الله في المسيح، مقاماً أعظم يتمسك به.

وهكذا إذا نظرنا إلى الثقافة السائدة في العصر الحديث وروح العصر التي أفرزت الأصولية والإرهاب المسلح، وجدنا أن الغائب هو كرامة الإنسان، بينما حضر الإيمان بالسلاح والقتل كردٍّ على الفكر، ومحاولات دائمة لقتل المعارضة ومصادرة الكتب، ونشر الاتهامات ... الخ

فإذا كان هذا هو واقع الأمور في المجتمع، فماذا عن الكنيسة، وكيف يمكن أن تسقط في هذه التجربة القاسية؟

والجواب بسيط .. إن كل علماني — بالفعل – هو أخ حقيقي للمسيح، وابن للآب السماوي. خلف هذا نجد عقيدةً تقول بأن الكنيسة جسد المسيح. فإذا كان هناك إيمان بأن الكنيسة هي فعلاً جسد المسيح، لتعذَّر على مسيحي أن يسيء إلى مسيحي آخر؛ لأن للكل كرامة واحدة وحياة واحدة، والكل أعضاء في جسد واحد .. أمَّا إذا تحولت هذه العقيدة إلى مجرد شعار بلا مضمون، وفكرة مجردة ليس لها وجود في الواقع، استطاع كل من يريد الاعتداء أن يذبح مَن يريد، وأن يصلب من يشاء؛ لأن الكنيسة عندئذٍ ليست جسد المسيح، بل هي فقط "جماعة المؤمنين"، وهكذا نرى ذات الهرم القديم، وقد عاد من جديد يطل برأسه شاهراً سيف السلطة، غير عابئ بالجسد الواحد الذي له رأس واحد هو المسيح.

وإذا كنا نؤمن فعلاً أننا – بالنعمة – شركاء في الطبيعة الإلهية، فهل يجرؤ أحد على أن يعبث بحرية ومكانة من كان شريكاً في طبيعة المسيح؟ هل يجرؤ أحد على الاستهانة بمن أصبح بالنعمة ابناً لله، وأخاً ليسوع المسيح؟

هكذا رأى القائمون على الأمور في موضوع الشركة في الطبيعة الإلهية ما يهدد سلطانهم؛ ولذلك تجدهم يستميتون في التأكيد على أننا عبيد، وعندما تعييهم الحجة يلتجئون إلى ما ورد في أمثال يسوع في الإنجيل يلوون عنقها ويستنطقونها ما لم تقله وما لم تقصده، بل وما لم يؤكد عليه الإنجيل نفسه؛ لأن يسوع نفسه قال لا أعود أسميكم عبيداً بل أحباء.

وبعد، فماذا نقول أيضاً عما أفرزه العصر والثقافة السائدة من محاولات دفن بشارة المسيح في رمال الشك وزعزعة العقيدة الأرثوذكسية باسم الهرطقة؛ لكي يصبح الاعتداء سهلاً، على أقدس ما يملكه الإنسان، وهو الحرية والرأي.

وإذا حاولنا أن نطبق قواعد شرح العقيدة وفرز الهرطقات، وهي: الممارسة الكنسية – والمعنى الكنسي للكتاب المقدس – وغاية ومصير الإنسان الأبدي، على ما يقال ضد الكنيسة "جسد المسيح الواحد"، وضد "الشركة في الطبيعة الإلهية"، لوجدنا أن الممارسة الكنسية في الإفخارستيا تعني الشركة في ناسوت المسيح ولاهوته؛ لأن "عمانوئيل غير منقسم من بعد الاتحاد إلى طبيعتين"، فإذا أخذنا الناسوت دون اللاهوت وقعنا في شرك الأريوسية، وإذا أخذنا اللاهوت دون الناسوت وقعنا في بحر الأوطاخية .. وإذا أخذنا المسيح الواحد صرنا أحياء به، وفيه صرنا مقدَّسين، ومعه صرنا جسداً واحداً.

وبعد كل هذا، هل يحق لأحد أن يقول:

إذا كانت الإفخارستيا هي جسد المسيح،

وكانت الكنيسة أيضاً هي جسد المسيح،

فهل يعني هذا أننا نأكل أنفسنا عندما نتناول؟!!!

هنا أيضاً نرى ذات التسلسل المنطقي الفاسد الذي رأيناه قبلاً فيما يخص موضوع الفداء والخطية، ولكننا نجد أيضاً أن هذه القضايا فاسدة فلسفياً وعقائدياً.

ما معنى الاسم: "المسيح"؟

إنَّ ما هو للمسيح لا تنطبق عليه قواعد النحو والفلسفة وفكر الأرض، بل قواعد الروح الذي يحيي؛ لأنه عندما يقول الرب إنه هو "الخبز الحي النازل من السماء"، فهذا لا يعني أننا نأكل السماء .. بل يعني أن مصدره السماء .. وإذا كان الجسد هو جسد المسيح، صار مصدره المسيح، وهو الذي يجمع بجسده الكنيسة ويجعلها واحداً فيه وبه ومعه حسب الممارسة نفسها: "اجعلنا مستحقين كلنا أن نتناول من قدساتك طهارةً لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا؛ لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً، ونجد نصيباً وميراثاً مع جميع القديسين". وهكذا بعد أن نصبح في الإفخارستيا جسد المسيح، فنحن واحدٌ به وفيه، وهذا سرٌ سمائي لا يمكن أن ينطبق عليه قواعد المنطق الذي يأخذ أحكامه من الأرضيات.

وإذا أخذنا بقاعدة التفسير الكنسي لوجدنا أن إنكار الشركة في الطبيعة الإلهية يعني إنكار الأبدية؛ لأن الله "هو العظيم الأبدي" بالطبيعة، ونحن نأخذ هذه النعمة بالشركة في مصدرها .. ولكننا تركنا الإيمان، وأدخلنا منطق الجسد وفلسفة المادة لكي نزعزع ثقة الناس في تراثنا .. وما أضيق المستقبل إذا دُفنت كتب الآباء كما دُفنت من قبل، وما أعظم المستقبل إذا درسنا هذه الكتب ووجدنا فيها شريعة روح الحياة ليسوع المسيح مخلصنا.

المسيح له المجد هو البكر بين إخوة كثيرين (عب ٨: ٣٥)، وهو ونحن من أصل واحد حسب كلمة الرسول (عب ٢: ١١)، وهو الرأس ونحن الأعضاء، ولذلك تحرِّكُ الرأسُ الأعضاءَ "الذي منه ينمو كل الجسد بمفاصلٍ وربط .. ينمو نمواً من الله" (كولوسي ٢: ١٩). وهل هناك سبب لوجودنا في الكنيسة إلاَّ لأننا أخذنا الحياة من مصدرها الرئيسي؟!!

نعم نحن نسجد لمن سجد لنا؛ لأن المسيح سجد للتلاميذ عندما غسل أرجلهم (يوحنا ١٣: ٥)، وغسل أقذار خطايانا "أغسلني فأبيض أكثر من الثلج" (مزمور ٥١: ٧) .. لقد تواضع المسيح ونزل إلى هذا الحد، وأعطانا حياته، وجعلنا جسده، وأسلم نفسه لأجل الكنيسة "لكي يقدِّسها مطهراً إياها بغسل الماء بالكلمة. لكي

يحضرها لنفسه كنيسةً مجيدةً لا دنس بها .. بل تكون مقدسةً وبلا عيب" (أفسس٥ : ٢٦ – ٢٧).

وإذا كانت الليتورجية تقول عن المسيح: "لأنك أنت هو رجاؤنا وشفاؤنا وخلاصنا وقيامتنا وحياتنا كلنا .."، فهل يمكننا أن نقول – بنفس المنطق – إن المسيح فقد حياته عندما أعطاها لنا؟!

تُصف الليتورجية الإفخارستيا بأنها: "الأسرار الإلهية غير المائتة السمائية"، إذن فمن يأكل يحيا، ولذلك يقول القديس كيرلس العبارة المشهورة التي تذكرها ليتورجية الكنيسة اليونانية: "يُكسر حمل الله ويوزَّع، يُكسر ولا ينقسم، يؤكل دائماً ولا يضمحل، بل يقدِّس الذين يتناولونه" .. نحن نسجد للرأس الذي منه حياتنا "لأنكم قد مُتم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله، متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذ أنتم أيضاً تُظهرون معه أيضاً في المجد" (أفسس ٣: ٣ – ٤).

اختلال ميزان الإفراز:

إن أخطر ما يواجه الدولة الحديثة هو أن يحل الشخص محل القانون والنظام، عندئذٍ تصبح آراء الشخص قانوناً، وانفعالات الشخص نظاماً يقره السلطان لا العقل. وحلول الشخص محل القانون الكنسي يجعل الكنيسة مؤسَّسةً سياسيةً تخضع لكل ما يدور في عقل إنسان واحد، وهذا خطير جداً؛ لأنه ينزع عن الكنيسة ارتباطها بالتقليد وقدرتها على المحافظة على الإيمان القويم. ولذلك فعندما تصبح آراءُ شخصٍ ما – مهما كان – هي العقيدة، وهي الأرثوذكسية، وعندما تتعارض هذه الآراء مع الممارسة والصلوات، فإن ميزان الإفراز يختل.

وعندما تتسع دائرة الاتهام لكي تشمل الآباء مثل أثناسيوس وكيرلس الكبير، فإن الأجيال الآتية سوف تجد أمامها "جبلاً كبيراً" من الخوف، وجبلاً آخر أعظم منه هو الشك في صدق ما يطرحه علينا التراث المسيحي القديم. وإذا كان مَن ينشر كتابات الآباء يُطارَد ويُحاكم غيابياً، فمن الذي يمكنه أن يطمئن على نفسه لكي يطرح رأياً موجوداً في تراثنا؟ إن هذا الجو الخانق، جو الريبة والتربص بكل من

يكتب أو يفكر أو يناقش، إنما هو "قبرٌ للحرية"، وسوف يقتل رجولة وشجاعة الأجيال القادمة، وسوف يحوّل الأقباط إلى أقلية دينية وسياسية تجد المناعة في الجهل والتضامن في مقاومة حرية الرأي. وهذا هو نهاية الوجود الإنساني نفسه الذي لا يحتاج إلى عامل مساعد من الخارج لكي يقتل الرجاء والأمل في نفوس الناس.

لقد كانت المسيحية في مصر دائماً ديانة الأقلية، أي ديانة الذين يمارسون الإنجيل، وكانت مدرسة الإسكندرية تسمح بالتعدد في التفسير، لأن المجتمع المصري كان يقبل حرية الرأي ويدافع عنه. وهكذا عندما يكون المجتمع الذي تحيا فيه الأقلية يمارس الحرية تشعر الأقلية بالطمأنينة، وعندما يحدث العكس، فإن القلق والخوف يتسرب إلى الأقلية ويحوّلها ضغط المجتمع إلى فئة غير قادرة على قبول تعدد التفسير أو تعدد الرأي لأن هذا يخلق نوعاً من الخوف من الانقسام. ونحن لا ننكر حالة التوتر والقلق في بلدنا الذي ينام على الإشاعات ويستيقظ على الإشاعات، وكل هذا يعكس الحالة النفسية العامة للأقلية، فإذا ظهر كتاب يقدِّم عدة تفاسير متنوعة للصلاة الربانية تراجع عنه الناس، وإذا ظهر مجلد أو أكثر يشرح إنجيلاً من الأناجيل يقال عنه كلاماً أجوفاً. ولعل ما هو جدير بالملاحظة، كثرة الكتب التي تسجِّل معجزات قداسة البابا كيرلس السادس، بينما هي تترك تعاليمه .. أقواله .. نظرته للحياة .. أبوته .. خدمته كراعٍ صالح .. فقد غرقنا بما فيه الكفاية في الغيبيات؛ لأننا لا نريد أن نحل مشاكلنا، بل نترك الحل للمعجزات. وإذا عجزنا عن إدارة حوار في داخل الكنيسة وأغلقنا كل منافذ العقل والفكر وتركنا المجال للأحلام والظهورات والمعجزات، فكيف يمكن – والغيبيات تتحكم في الفكر وتشل حركة الإرادة – أن نتقدم، وأن نحدد مسئولياتنا نحو الأسرة والزواج والتربية الكنسية، وقبل كل هذا حرية الرأي وحرية التعبير وحرية البحث، ونشر تراثنا القبطي الممتد عبر ما يزيد على ألف وستمائة سنة. المعجزات لا تحل مشاكلنا، وإنما هي عطية من فوق لكي تقوي الشهادة ... ولو قام الموتى، فهذا جيد، وهذا يعني أن يصبح إيماننا بعناية الله وقوته أكبر .. ولكن ماذا عن الذين اتُّهِموا في أعز ما يملكون في الكنيسة، بل في هذه الدنيا وهو الإيمان الأرثوذكسي؟!! .. وأي مجتمع هذا الذي عليه أن يحاسب الفئة الضعيفة ويترك الأقوياء..!!

ما هو الفرق بين باحثٍ ينشر ويترجم ويضع أفضل ما عنده، وبعدها تنطلق الأبواق: هرطوقي منحرف .. وباحث يكتب للوطن ولشعب مصر وتنطلق الأبواق "علماني كافر"، و"مرتد" .. ما الفرق بين الهرطوقي والعلماني والكافر والمرتد؟ .. أليست هي ذات التربية الدينية المصرية؟ .. هذه تظهر بشكل ومصطلحات قبطية، والأخرى تظهر بشكل ومصطلحات الفكر الأصولي. وإذا كنا لا نملك أن نحاسب من يطغى أياً كانت رتبته، فماذا يتبقى لنا من شهادة مسيحية، وقانون وعقيدة وأسرار كنسية؟ ماذا يتبقى لنا إذا كنا نعجز عن أن نسأل أو نحاسب الذين يعتدون على أعز عطية وُهبت للإنسان مرتين، مرةً عند الخلق، ومرةً أخرى عندما جدده المسيح، ألا وهي عطية "الخلق على صورة الله"؟

أقول ماذا تبقى لنا من شهادةٍ أمام الأجيال الآتية التي سوف ترى فينا الخوف والتراجع ودفن الرؤوس في الرمال، وإنكار ما يحدث عندنا؟ .. هل بقى لنا إيمان بالمسيح يدعونا إلى شهادةٍ حسنةٍ، وإلى صوتٍ يرفع شعار المحبة؟ محبة المصلوب الذي مَدَّ يديه لكل الذين كانوا يكرهون الله، وإلى أعداء الله بالفكر (أفسس ٤: ١٨). لقد جاء المسيح للمصالحة، ألا يجدر بنا أن نتوقف لكي نسأل عن المطرودين، وعن الذين قُتلوا روحياً حتى يمكننا أن نكمل طريق الصليب نفسه؟

التكفير حسب الأسلوب القبطي المعاصر:

إن حلول الشخص محل العقيدة، واختزال الأرثوذكسية في شخص – أياً كان – لا يخلو من الخطورة، ووجه الخطورة في ذلك أنه ينزع عن الأرثوذكسية ثلاثة عناصر هامة هي:

أولاً: شهادة التاريخ الكنسي.

ثانياً: شهادة الممارسة التي نسمعها ونقرأها ونمارسها في الليتورجية.

ثالثاً: صلة الجماعة بالتراث الكنسي، أي شهادة حياة الجماعة.

فإذا كان رأيُ شخصٍ أو تعليمه يفتقر إلى شهادة التاريخ الكنسي، ويتعارض مع عبارات صريحة وقاطعة وردت في صلوات الكنيسة، ويتعارض مع ما تعرفه الجماعة،

وجب في هذه الحالة أن يُحال الأمر إلى البحث والدراسة لكي يقدِّم هذا الشخص سنده من العناصر الثلاثة السابقة والتي تكوِّن الأرثوذكسية الحقة.

أمَّا أن يصبح رأي هذا الشخصٍ هو الأرثوذكسية، وأن يعلن هذا الشخص إن كل الذين يختلفون معه هم أعداء للأرثوذكسية وهراطقة، فليس هذا إلاَّ أسلوب التكفير السائد في المجتمع المصري المعاصر، وهو ذات المرض الذي تستخدمه جماعات الفكر الأصولي المسلحة. وإذا وُصِفَ صاحب رأي بأنه بروتستانتي مثلاً، دون بحث، ودون أدلة اتهام ودون فرصة الدفاع عن النفس، والحوار، فإننا عندئذٍ نكون أمام ذات الظاهرة السياسية الدينية، وإن ارتدت عباءة قبطية.

كيف دخل أسلوب التكفير في حياة الجماعة القبطية؟

لا يكفي أن نأخذ بالأدلة الباثولوجية، بل يجب أن نضع المرض كله في إطار ما نراه في البيئة .. كانت الجماعة القبطية تموج بحركات دينية متنوعة يعود بعضها إلى الخمسينات والستينات: خلاص النفوس – كنيسة الله – شهود يهوه – الأدفنتست الذين استطاعوا الحصول على مبنى في قلب العاصمة، وفي مواجهة محطة مصر ..

وكانت الإرساليات الأمريكية وغيرها التي لا علاقة لها بالحركة المسكونية والحوار المسيحي العالمي، تعمل بكل قوة لتحويل الجماعة القبطية عن الأرثوذكسية، وسُمِح لهؤلاء بالعمل في مصر، وكان تكفير الكنيسة القبطية كلها – تاريخاً وعقيدة وحياة – هو دأب المبشِّرين، ثم جاء تكفير الحركة المسكونية المسيحية بواسطة الحركات الأصولية البروتستانتية، ولم تسلم الكنيسة الإنجيلية في مصر من الهجوم والتقريع.

أمَّا في داخل الكنيسة القبطية، فقد جاءت انتخابات البابا السكندري بعد نياحة مثلث الرحمات البابا كيرلس السادس بأكبر شرخ في داخل الكنيسة .. وحدث انقسام كبير بين القيادات التي كانت طليعة النهضة القبطية، وجُرِح عددٌ كبير في هذا الصراع غير المعلن، ودخل الاتهام بالهرطقة حلبة الصراع، وتحول الصراع على السلطة الكنسية إلى حرب عقائدية استُخدمت فيها العقيدة الدينية الأرثوذكسية لإبعاد فئة وإقصاء أخرى.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان المناخ النفسي والكنسي غير قادر على استيعاب ما جاء في كتابات الآباء والتي نُشر بعضها باللغة العربية. كان لدينا الخوف الخاص بالأقليات من كل فكر غير مألوف لدينا، أي ما اعتدنا عليه، وهو فكر النهضة القبطية التي ظهرت في أول العشرينات ورفعت لواء الأرثوذكسية في مواجهة هجوم الإرساليات – كما ذكرنا سابقاً – وقامت بدور كبير في تكوين لاهوت قبطي له وجه بروتستانتي في مواجهة الكاثوليك، ووجه كاثوليكي في مواجهة البروتستانت.

وباتت العودة إلى التراث الآبائي تحمل في داخلها قوة تهدد الفكر الديني الذي جاء مع النهضة القبطية في بداية العشرينات .. فقد فهم البعض أن العودة إلى الآباء – مثل أثناسيوس الرسولي – هي دعوة لفحص كتابات أخرى جاءت خالية من تسليم الآباء، خصوصاً وقد شعر هؤلاء الذين استمدوا أفكارهم من كتب الإرساليات البروتستانتية والكاثوليكية، أن الاتهامات التي وجهت لغيرهم يمكن أن توجه إليهم.

غير أنه — أياً ما كان الأمر – ليس أمامنا إلاَّ أن تفرض الجماعة القبطية نفسها على نفسها فترةَ سلامٍ دون انتظار "حِلٍ" أو "طرس بركة" من أحد لكي نخلق الحوار بالأبحاث، وبنشر ترجمات لما وصلنا من كتابات الآباء، وبدراسات عن أهم الفروق بين الشرق والغرب .. لا يوجد لدينا طريقٌ آخر، ولا يوجد حلٌّ آخر .. غير ذلك هو الموت البطيء.

الفصل الثاني

قواعد فرز الهرطقة كما نراها في التاريخ الكنسي ومؤلفات الآباء

لعل أكبر هرطقة شغلت الكنيسة طوال القرن الرابع والخامس والسادس هي الهرطقة الأريوسية. فقد ظلت جيوب الأريوسية متناثرة في الغرب حتى آخر القرن السادس. ومن الأريوسية تفرعت هرطقات أخرى مثل هرطقة أبوليناريوس، ومن هرطقة أبوليناريوس تفرعت هرطقة أوطاخي، وكانت هرطقة أوطاخي هي رد ذلك الراهب السيئ الحظ على أبوليناريوس، ثم جاء رد نسطور بما هو أفظع. سلسلة متصلة الحلقات تبدأ بإنكار أزلية الابن، ثم بتصور أنه مخلوق مثل الملائكة، وإذا كان هذا التصور صحيحاً، كان من الضروري القول بأنه يميل إلى الشر مثل كل البشر.

وعندما طرحت الأريوسية هذه النقطة بالذات جاء رد الأسقف أبوليناريوس حاسماً بأن الابن الكلمة لا يحتاج إلى عقلٍ بشري، وبالتالي هو غير معرَّضٍ للخطية، وبذلك أنكر الأسقف وجود نفس وعقل وإرادة إنسانية في المسيح. وجاء رد أوطاخي حاسماً: الشَّرُ في الجسد، وإذا ذاب الجسد في اللاهوت، لم يعد الابن معرضاً إلى تجارب الشر والخطية. وأما رد فعل نسطور فهو يسير في ذات الاتجاه، أي الفصل بين الإله والرب والكلمة، والعبد والإنسان يسوع المسيح. وخلف هذه الهرطقات توجد — كما سبق أن أوضحنا – مدارس فلسفية وسياسية واجتماعية.

المبحث الأول

آلية فرز الهرطقة والحكم عليها

التصور الشائع عندنا هو أنه يكفي أن يوجّه الاتهام بالهرطقة أحد الإكليروس، وينطق بالحرم وينتهي الأمر، لكن التاريخ يقول عكس ذلك. وقبل التاريخ يقف القانون الروماني، أي القانون المدني الذي حَكَمَ الإمبراطورية الرومانية، والذي تطوَّر بعد معمودية الإمبراطور قسطنطين .. وجاء هذا القانون بعدة مبادئ نراها في كل وثائق التاريخ الكنسي المسيحي .. بعض هذه المبادئ موجودة في الكتاب المقدس نفسه وفي التعليم الرسولي:

ضرورة وجود الأدلة والشهود:

يقول الرسول بولس مؤكِّداً المبدأ الإلهي المعلَن في العهد القديم: "لا تقبل شكاية على شيخ إلاَّ على شاهدين أو ثلاثة شهود" (١ تيمو ٥: ١٩ – راجع تث ١٩: ١٥).

وكانت شهادة الزور التي قدَّمها مجمع السنهدرين أثناء محاكمة ربنا يسوع المسيح هي أفظع ما حدث في هذه المحاكمة؛ لأنها كانت تقوم على تحريف كلمات الرب. ويروي القديس مرقس الحدث كالآتي: "لأن كثيرين شهدوا عليه زوراً ولم تتفق شهاداتهم. ثم قام قومٌ وشهدوا زوراً قائلين نحن سمعناه يقول إني أنقض هذا الهيكل المصنوع بالأيادي وفي ثلاثة أيام أبني آخر غير مصنوع بأياد" (مرقس ١٤: ٥٦ – ٥٨). في حين أن ما قاله يسوع حسب شهادة إنجيل يوحنا: "قال يسوع لهم، انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه .. وأمَّا هو فكان يقول عن هيكل جسده" (يوحنا ٢: ٢١). وهكذا حرَّف هؤلاء الشهود قول يسوع إذ أضافوا عبارة "المصنوع بالأيادي"، وبدلاً من كلمة "أقيمه" وضعوا عبارة "وفي ثلاثة أيام أبني آخر غير مصنوع بأياد". ويعلق القديس مرقس على ذلك بـ "ولا بهذا كانت شهادتهم تتفق" (مر ١٤: ٥٩)؛ لأن يوحنا يقول: "وأمَّا هو فكان يقول عن هيكل جسده".

ونرى ذات الموقف في سيرة الأنبا باخوم "أب الشركة" إذ جمع أسقف دندرة شهودَ زورٍ ليدَّعوا بأن الأنبا باخوميوس قال إنه في السماء، بينما العبارة الأصلية هي: "عقلي في السماء"[١٣].

ولأن مجمع اليهود اعتمد على الشهادة الزور لصلب الرب، ولأن كل الحقائق يمكن أن تداس تحت أرجل شهود الزور، ولأن شرائط الكاسيت يمكن تزويرها عن طريق نقل وحذف وتركيب عبارات من هنا وهناك، كانت الكنيسة تحرص على: الأدلة، والأدلة ليست عبارات أو جمل تقتطع من سياقها وتجمع من هنا وهناك، بل عبارات واضحة مكتملة يجمعها المجمع ويضع تحت كل عبارة، الفقرة الخاصة من التعليم المقدس. ويمكننا أن نرى ذلك بوضوح من خلال صياغة وثيقة تجريد أريوس من الكهنوت.

وثيقة تجريد أريوس من الكهنوت[١٤]:

"إلى الأعزاء المكَّرمين شركاء الخدمة في الكنيسة الجامعة في كل مكان. الإسكندر (أسقف الإسكندرية) يطلب لكم العافية والصحة في الرب.

- يوجد جسد واحد، وهو الكنيسة الجامعة، وقد أوصتنا الكتب المقدسة أن نحفظ وحدانية رباط السلام"....

(وبعد ذلك يضع الأسقف الأدلة).

"الذين ارتدوا عن الإيمان هم، أريوس، أخيللوس ..

(ويذكر باقي الأسماء).

والتعليم الجديد الذي اخترعوه والمضاد للكتب المقدسة هو كما يلي:

(١٣) راجع سيرة الأنبا باخوم، ولاحظ أيضاً عبارة صلاة الساعة الثالثة "إذا ما وقفنا في هيكلك المقدس نُحسب كالقيام في السماء".

(١٤) تعرف هذه الوثيقة باسم Henos Somatos لأن أول فقرة هي "يوجد جسد واحد" راجع مجلد أثناسيوس ص ٦٩. وقد جمع كل وثائق الأريوسية في دراسة تاريخية هامة تعتبر حجة ومرجع لكل ما يقال عن الأريوسية المؤرخ الألماني Hans - Georg Opitz.

- الآب لم يكن الآب منذ الأزل، بل يوجد وقت لم يكن فيه الآب.

- كلمة الله ليس أزلياً، وإنما خُلِقَ من العدم؛ لأن الله خلقه من العدم، ولذلك لم يكن الكلمةُ كائناً في وقت من الأوقات؛ لأن الابن مخلوق مثل باقي المخلوقات، وهو ليس مثل الآب في الجوهر، وهو ليس الكلمة الحقيقي الذي من جوهر الآب، ولا هو الحكمة الحقيقي، بل هو أحد المخلوقات التي تدعى كلمة وحكمة من قبيل سوء استخدام المصطلحات...

(ويضع الأسقف الرد مباشرةً مؤكداً):

وعندما أعلن أريوس والذين معه هذه الآراء، وبدون خجل تمسَّكوا بها، عقدنا مجمعاً مع أساقفة مصر وليبيا مئة أسقف وحرمناه هو الذين معه.

(الرد على آراء أريوس):

"ومن يسمع كلمات يوحنا: "في البدء كان الكلمة"، لا يمكنه أن يقبل، بل يرفض آراء هؤلاء الناس؛ لأنهم عندما يقولون "كان هناك وقتٌ لم يكن فيه الابن موجوداً، فهم لم يسمعوا ما قيل في الإنجيل: "الابن الوحيد الذي به خلقت كل الأشياء"، وهكذا لا يمكن قبول ما يعلنوه من أن الابن هو من المخلوقات، إذ كيف يكون الابن واحداً من المخلوقات التي خلقها هو نفسه؟ وكيف يكون هو الابن الوحيد، وهو – حسب زعمهم – ضمن باقي المخلوقات؟ ..الخ".

(وبعد ذلك يقول):

"إننا بما نملك من أدلة مرجعها الأسفار المقدسة، قد قمنا بالرد عليهم عدة مرات، أمَّا هم فقد غيَّروا أسلوبهم مثل الحرباء التي تغيِّر لونها وغيَّروا موقفهم..".

(قرار القطع):

"ولأن ربنا ومخلصنا يسوع المسيح قد علَّمنا بفمه وبواسطة الرسل حقيقة هؤلاء الناس، ونحن أنفسنا شهودٌ على عدم إيمانهم، قد قطعناهم وأعلنَّا أنهم غرباء عن إيمان الكنيسة الجامعة".

ولعل أهم ما في القرار هو أسماء الذين وقعوا على هذه الوثيقة؛ لأن التوقيعات تضم ١٦ قساً ٢٤ شماساً، من ضمن هؤلاء الشماس أثناسيوس.

ملاحظات هامة على وثيقة اتهام وقطع أريوس:

١- تأكيد الخروج على الإيمان بواسطة العبارات القاطعة.
٢- الرد على هذه العبارات من الأسفار المقدسة.
٣- وضع قائمة بأسماء الشهود، وهم الذين وقَّعوا على الوثيقة.

المبحث الثاني

الأدلة التاريخية على
أسلوب الكنيسة المقدسة في إفراز الهرطقة

حسب شهادة المؤرخ الكنسي سقراط، وحسب عباراته يظهر لنا حقيقة الموقف قبل انفجار الجدل المسكوني الذي أثاره أريوس. يقول سقراط:

"بعد استشهاد بطرس أسقف الإسكندرية أثناء اضطهاد دقلديانوس، أقيم أخيلاوس أسقفاً، وخلفه الإسكندر في فترة السلام (التي تلت عهد دقلديانوس). وفي يوم من الأيام أراد الإسكندر الذي أخذ مسئولية رعايته دون خوف، أن يرعى الكنيسة ويقوم بواجبه كمعلم، فجمع القساوسة وكل الإكليروس، لكي يشرح – ربما بدقة فلسفية متناهية – هذا السر الإلهي العظيم: وحدة الثالوث القدوس، ولكن أحد الكهنة الذين يتبعون الأسقف الإسكندر، وهو شخص له ميول واتجاهات لاستخدام المنطق بدهاء، تصوَّر أن الأسقف يعلم بمكرٍ ذات تعليم سابليوس[١٥] الليبي[١٦] وبسبب محبة أريوس للجدال وتبني الرأي المعارض لسابليوس، أراد أن يعارض الأسقف ويرد على ما ذكره، وقال "إذا كان الآب قد ولد الابن، والابن مولود من الآب، فالابن له بداية، ومن هذا يظهر أنه كان هناك وقت لم يكن الابن فيه موجوداً، وهذا يعني أن جوهره من العدم (مثل باقي المخلوقات). وعندما استنتج أريوس هذه النتيجة بسبب أسلوبه المنطقي الجديد

(١٥) سقط عدد من إكليروس الكنيسة القبطية في هذه الهرطقة التي تنكر تمايز أقانيم الثالوث.

(١٦) سابليوس من ليبيا وكذلك أريوس أيضاً.

والغريب، جعل السؤال مصدر إثارة عند الحاضرين واستمال بعضهم. وهكذا من هذه الشرارة الصغيرة اشتعلت نار عظيمة، لأن الشر الذي حدث في كنيسة الإسكندرية، امتدت نيرانه إلى كل مصر، ومصر العليا (الصعيد) وانتشرت في كل إقليم ومدينة. وتشيَّع لأريوس عدد كبير وتبنوا رأيه وكان الأسقف يوسابيوس أسقف بيروت، وهو ليس يوسابيوس أسقف قيصرية هو أكبر المتحمسين، وكان يوسابيوس قبلاً أسقف نيقوميديا في بثينيا.

أمَّا الإسكندر فعندما شعر بخطورة ما حدث لأنه كان يراقب ما يحدث ويسمع ما يقال عن أريوس، ولما وصل إلى حد الاقتناع والضيق أيضاً مما حدث، جمع مجمعاً كبيراً للإكليروس، وقطع أريوس وهرطقته الفاسدة، وكتب إلى إخوته الأساقفة في عدة مدن الرسالة التالية"[١٧].

ملاحظات على نص الشهادة التاريخية:

١- لم يصدر قرار حرمان من الأسقف بمجرد أنه اختلف مع أريوس. هذا الأسلوب الصبياني لا يتفق، لا مع كرامة الأسقف كأب، ولا مع جوهر التعليم والممارسة الكنسية الأرثوذكسية. وواضح من شهادة سقراط أن عدة أيام مرت قبل عقد المجمع.

٢- لعل القارئ لاحظ الأسلوب المنطقي لأريوس، فهو يسير حسب قواعد المنطق:

*الابن مولود من الآب.

* الابن له بداية كمولود.

إذن الابن مخلوق مثل باقي المخلوقات، وله جوهر مَن خُلق من العدم.

٣- لكن الأهم هو رسالة الأسقف إلى باقي الأساقفة، وهي ذات الرسالة التي تُرجمت

(١٧) سقراط - تاريخ الكنيسة ك ١: فقرة ٥-٦، راجع الترجمة الانجليزية ص ٣.

أجزاء منها لتؤكد حقيقة الاختلاف اللاهوتي بين الأسقف بابا الإسكندرية وأريوس. وقد نشر القديس أثناسيوس هذه الوثيقة باسم "قرار تجريد أريوس وقطعه من الشركة".

شخصية أريوس كمثال لمحبي الخصام والشجار:

قدَّم سقراط المؤرخ عدة أوصاف لشخصية أريوس الصراعية التي لا تحب السلام وتحيا وتنمو على الجدال والخصام فقال عنه:

> "له مظهر ناسك متحفظ تبدو له ملامح الجد والمعرفة، جذاب، متكبر، غير أمين ومخادع"[١٨].

ووصفه الإمبراطور قسطنطين نفسه في رسالة احتفظ بها المؤرخ الكنسي Gelasius (عاش في القرن الخامس) وقال فيها الإمبراطور:

> "إنه مخادع وماكر ولا يحب السلام والوئام. تدفعه الغيرة والحسد إلى خلق فرص الانتقام والانقضاض حتى على الذين يختلفون معه في الرأي"[١٩].

ونستطيع أن نقبل شهادة سقراط والإمبراطور قسطنطين؛ لأن اتهام البابا الإسكندر بهرطقة سابليوس هو اتهام غير صحيح بالمرة، بل هو قرار ينطوي على خداع ومكر؛ لأن سابليوس – حسب أدق ما وصلنا من مصادر تاريخية – لم يعلِّم بالمرة بولادة الابن من الآب؛ لأنه كان يعتقد بأن الآب والابن هما مجرد أسماء لظهورات إلهية.

الدور الرعائي للبابا الإسكندر:

يمكننا أن نرسم ملامح هذا الدور من خلال النقاط الآتية:

١- الرسالة المجمعية التي وقَّع عليها قساوسة وشمامسة الإسكندرية، لأن الشهادة للإيمان لا تصدر بتوقيع شخص واحد مهما كان مركزه.

(١٨) تاريخ الكنيسة ١: ٥ – ٢: ٣٥.

(19) History of the Council of Nicea 3 : and Nansi 2 : 930 ff.

٢- مشاركة الأساقفة في الكنائس الأخرى. والمقصود من شهادة سقراط وغيره، عدم الاحتفاظ بالطابع المكاني أو الإقليمي للجدال اللاهوتي. ربما كان ذلك للجوء أريوس لأساقفة فلسطين وسوريا، وللشخصية السياسية الداهية يوسابيوس أسقف نيقوميديا الذي نقل نفسه من إيبارشية بيروت إلى نيقوميديا وهو ما تحرمه قوانين الرسل، ثم قوانين مجمع نيقية بعد ذلك.

٣- لعل أهم ما نلاحظه هنا أنه يوجد فرقٌ بين تحقيقات الشرطة التي تُحاط بالسرية الكاملة (في النظم الديمقراطية) حتى تصل الشرطة إلى اتهام تتولاه النيابة ثم القضاء، وبين علانية الاتهام، وعلانية القرار، وشركة الكل في الحوار.

علانية المشاركة حتى أثناء انعقاد مجمع نيقية[٢٠]:

١- حسب شهادة المؤرِّخ الكنسي روفينوس، وجَّه الإمبراطور قسطنطين الدعوة إلى أريوس لحضور المجمع (تاريخ الكنيسة ١: فقرة ١). فالكنيسة لا تعرف المحاكمات الغيابية التي ذاعت في العصر الحديث بسبب توفر شرائط الكاسيت والفيديو[٢١]. وحضور المدعي عليه هو دليل ليس على الحرية فقط، بل على الرغبة في الوصول إلى الحقيقة.

٢- يؤكِّد المؤرِّخ سقراط حضور العلمانيين بعد الفقرة التي يذكر فيها حضور الأسقف المعترف بفنوتيوس:

> "ومن الحاضرين ضمن الأساقفة اثنان من الذين لهم شهرة غير عادية، بفنوتيوس أسقف طيبة العليا (ربما الأقصر الآن)، وسبريدون أسقف قبرص ... وعدد كبير من العلمانيين كانوا حاضرين، وهؤلاء كانوا يمارسون فن الحوار Dialectics".
>
> (تاريخ الكنيسة ١: ١٧).

---

(٢٠) عثر الأثري الدنمركي على أقدم مخطوطة لتاريخ مجمع نيقية ونشرت باسمه George Zoega عام ١٨٠٩ وهي كتاب قبطي بقيت منه أربع صفحات فقط وكتبت في القرن الرابع الميلادي راجع : Catalogus Codicum Copticoram.

(٢١) اسم المجمع المسكوني دونه لنا المؤرخ يوسابيوس القيصري (تاريخ الكنيسة ١ : فقرة ٥٠) وتاريخ المجمع حسب التقويم القديم هو عام ٦٣٦ للإسكندر الأكبر الموافق عام ٣٢٥ ميلادية وكان الافتتاح الرسمي بحضور الإمبراطور هو يوم ٢٠ مايو.

هؤلاء هم أشبه بما يعرف في العصر الحديث باسم المحامين. وكان فن الحوار يدرَّس في العالم القديم، ومن أجل بقاء هذا الفن الهام، دوَّن لنا أفلاطون "محاورات أفلاطون" التي كان يتولاها الفيلسوف سقراط. وحتى القديس أثناسيوس نفسه – حسب شهادة المؤرخ الكنسي روفينوس – كانت له قدرة فائقة على الحوار (روفينوس تاريخ الكنيسة ١: ١٤).

٣- وحضور المحامين كان ضرورياً؛ لأن القانون الروماني – الذي وُلدت في ظله كل قوانين حضارات شعوب البحر الأبيض المتوسط، بل كل أوربا – كان يعتبر عدم وجود مُدافع أو محام عن المتهم هو دليل على عدم وجود أدلة على ثبات التهمة[٢٢].

٤- بل أحضر أريوس معه عدداً من الفلاسفة الوثنيين للدفاع عنه. ويذكر المؤرخون الكنسيون (روفينوس ١: ٣ – وسوزومين ١: ١٨ – وسقراط ١: ٨) قصة الفيلسوف الوثني Phaedo فيدو الذي حاول أن يحاور القديس يوستاسيوس أسقف إنطاكية وتحوَّل الحوار إلى تبشير بالمسيحية جعلت الفيلسوف يعتنق الإيمان وينال المعمودية.

حق الدفاع عن النفس يؤكده حق الاستئناف:

يقول إنجيل القديس يوحنا إن نيقوديموس وهو أصلاً من مذهب الفريسيين قال لرؤساء الكهنة والفريسيين "ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يُسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل؟" (يوحنا ٧: ٥١). وهكذا حضر أريوس – كما حضر من قبل، المجمع المكاني في الإسكندرية الذي حَكَمَ بقطعة من الشركة – للدفاع عن نفسه أمام المجمع المسكوني.

١- حق الكلام العلني، حسب شهادة المؤرخ سوزومين:

"وقبل افتتاح المجمع، اجتمع الأساقفة معاً، ودعوا أريوس

(٢٢) راجع مدونة القانون الروماني للإمبراطور قسطنطين وهي خلاصة أحكام القانون الروماني السابق على ظهور المسيحية الكتاب الرابع عشر: فقرة ٢٨.

لحضور، وبدأوا في فحص الموضوعات المختلف عليها، وأعلن كل أسقف رأيه، وكما كان متوقعاً، ظهرت عدة أسئلة مختلفة نتيجة فحص هذه الموضوعات. وتكلم بعض الأساقفة ضد تقديم هذا التعليم الجديد المضاد للإيمان الذي سُلِّم منذ البدء. أمَّا الذين يميلون إلى البساطة في الإيمان، فقد أعلنوا أن الإيمان بالله يجب أن يقبله الناس بدون فحص لهذه الأسئلة الغريبة. والبعض الآخر قال بأن التعليم القديم يجب أن يؤخذ بدون فحص"[٢٣].

هكذا كانت اجتماعات الكنيسة، لأنها من أجل الله ومن أجل الحق.

٢- ويقول سوزومين عن اشتراك غير المسيحيين في الحوار:

"وعندما بدأ النقاش، رغب بعض الفلاسفة الوثنيين الاشتراك في الحوار، البعض لأنهم أرادوا أن يعرفوا ما هي الموضوعات التي يدور حولها الحوار. والبعض لأنه كان مستاءً من الاضطهاد والضغط الذي وقع على المسيحيين"[٢٤].

حكم مجمع نيقية:

بعد الحوار الذي امتد عدة أيام سَمِعَ فيه كل طرفٍ الآخر دون استعجال أو عجلة. جاء حكم المجمع في شكل قانوني دقيق:

أولاً: حدد المجمع الخطأ، وهو إنكار أزلية الابن.

ثانياً: قرر المجمع قطع الذين لا يقبلون القرار.

ثالثاً: جاء حكم المجمع بالقطع بعد رفض المخالفين للتوقيع على الوثيقة التي كانت تضم قانون الإيمان.

---

(٢٣) تاريخ الكنيسة ١: ١٧.

(٢٤) المرجع السابق ١ : ١٨.

واعتبر المجمع أن عدم التوقيع على الوثيقة هو بمثابة رفضٍ للإيمان، وبذلك وضع الجانب الأريوسي الذي كان يضم عدداً من الأساقفة أمام الأمر الواقع الذين رفضوا التوقيع، وهم ١٧ شخصاً من حزب أريوس (سوزومين ١: ٢٠).

ويقول سوزومين مباشرة:

> "ومن الضروري أن يعرف الكل أنه على الرغم من أن يوسابيوس أسقف نيقوميديا وثيؤجنس أسقف نيقية قبلوا وثيقة الإيمان كما صاغها المجمع، إلاَّ أنهم لم يقبلا الحكم بقطع أريوس، ومع ذلك لم يصدر قرار بقطع هؤلاء، لأنهم رفضوا الإيمان الأريوسي".
>
> (سوزومين ١: ٢٠).

الفصل الثالث

المبادئ اللاهوتية والقانونية التي حددت خطأ نسطور وهرطقته

شُكر:

يجب أن نسجل هنا – بكل اعتزاز – الشكر للقس السكندري بطرس الذي عُيِّن سكرتيراً لمجمع أفسس المسكوني الثالث ٤٣١ إذ ترك لنا:

١– محاضر الجلسات كلها، وأقوال كل الأطراف.

٢– سجَّل لنا الوثائق التي قدَّمها كل طرف.

٣– ترك لنا سجلاً كاملاً بكل الوقائع التاريخية، أي حتى ما حدث خارج الجلسات.

عتاب:

لا تخلو كتب التاريخ المعاصرة من مغالطات تاريخية هي وليدة خيال الباحثين والنقاد، أي أنها لا تستند إلى وثائق ووقائع، بل افتراضات وأوهام لا تسندها الوثائق مثل الوقائع.

ولعل أول عتاب يجب أن يوجَّه للذين تصوروا أن الخلاف بين القديس كيرلس السكندري والبطريرك نسطور كان خلافاً شخصياً. هذا غير صحيح على وجه الإطلاق.

طبعاً عندما يحتدم الجدل بين اثنين، فإن المشاعر والعواطف لا يمكن أن تظل بعيدة، لذا نرى عبارات سخرية وتهكم مرير في عظات يوحنا الإنطاكي وهو يهاجم القديس كيرلس. وهناك عبارات قاسية، وإن كانت أقل قسوة في عظة للقديس كيرلس يرد فيها على هجوم يوحنا الإنطاكي. ولكن – كما سنرى – لم يكن الخلاف بين وجهتي نظر، ولا كان خلافٌ على تفسير عبارات أو نصوص الكتاب المقدس، بل كان الخلاف على قضايا هامة لا يكون الاحتكام فيها إلى الرأي الشخصي، بل إلى الممارسة الكنسية، مثل سر الإفخارستيا، وإلى قانون الإيمان النيقاوي نفسه، وبالذات كلمات القانون: "نؤمن بربٍ واحدٍ يسوع المسيح .. الخ". وعبارة "ربٌ واحد" هي عبارة رسولية. وعبارة "ربٌ واحد" تعني عدم انقسام المسيح إلى اثنين. ولقب والدة الإله (Θεοτοκος) ليس لقباً يمكن أن يُشرح بطريقتين، بل هو لقبٌ سابقٌ على ميلاد نسطور وكيرلس الكبير، وَرَدَ عند العلامة أوريجينوس .. كل هذه أمور ليست من الأمور التي يمكن أن توصف باسم علاقات شخصية.

المبحث الأول

التعبيرات والمصطلحات اللاهوتية الخاصة بالتجسد قبل مجمع أفسس المسكوني ٤٣١م

١- تعبيرات ومصطلحات لاهوتية بريئة:

لم يشرح الآباء قبل أفسس ٤٣١م الاتحاد بين اللاهوت والناسوت بالشكل الذي نراه في مرحلة الصراع ضد الأريوسية وما بعد الأريوسية. طبعاً من آنٍ لآخر تواجه الكنيسة أسئلةً لم تكن مطروحةً من قبل، ولذلك لا توجد عليها ردود جاهزة بالمرة. وإذا استخدم الآباء تعبيرات لاهوتية، واكتشف جيل آخر أن هذه التعبيرات غير دقيقة وتؤدي إلى نتائج لا تتفق مع التعليم .. أسقط التاريخ هذه التعبيرات تماماً.

وكمثال لما نقول، يقول أغناطيوس الأنطاكي عن الرب إنه "لَبِسَ الناسوت – σαρκοφορος" (رسالة إلى سميرنا فقرة ٥). وهذا تعبير بريء ولا ضرر منه؛ لأن نسطور لم يكن موجوداً. وتعبير "لَبِسَ الناسوت" لا يشكل أي خطر طالما أن الكاتب لا ينكر الاتحاد. واستخدم ترتليان نفس التعبير (ضد براكسيان فقرة ٢٧). وحتى العلامة أوريجينوس، وكان أكثر دقةٍ في اختيار كلماته، وهو يقول عن تجسد الابن إنه امتزاج مثل امتزاج خيوط القماش أثناء غزلها (συννφαινεσθαι) (المبادئ ك ٣: ف ٦ – فقرة ٣ ضد كلسوس ٣: ٤١). كما استخدم مثيوديوس تعبير الاختلاط Καρσις وهو تعبير يظهر عند ترتليان (الدفاع فقرة ٢١ – كبريانوس مقالة بطلان العبادة الوثنية ص ٢٢٨ طبعة باريس ١٧٢٦).

٢- تعبيرات لاهوتية جيدة، ولكن لا تكفي لمواجهة خطأ جديد:

بعد ظهور هرطقة أبوليناريوس الذي أنكر وجود نفس عاقلة وإرادة إنسانية وعقل إنساني في الكلمة المتجسد، وقال إن اللوغوس Λογος أو الكلمة حلَّ محل النفس العاقلة والعقل والإرادة، جاءت معارضة الآباء على لسان غريغوريوس النزينزي الذي قال إن المسيح طبيعتين: الله والإنسان، ابن الله وابن الإنسان Φυσεις μεν Θεος και ανθροπος,Υιοι δε ου δυο (مقالة ٥١). وجاء التعبير مؤكداً كمال الطبيعة الإلهية وكمال الطبيعة الإنسانية. ولكن هذا لم يكفِ لمواجهة خطأ النسطورية.

ملامح من شخصية نسطور:

من أوصاف مؤرخي الكنيسة[٢٥] نعرف أن نسطور وُلِدَ في سوريا في بلدة Germanicia جرمنيا، وأنه عاش فترة شبابه في إنطاكية. تعلَّم الفلسفة والشعر وفن الخطابة. وكان يلقي أشعار قدامى اليونان بصوت رخيم. دخل الدير وترهبن، ثم رُسم شماساً على كاتدرائية إنطاكية ثم قساً. وكان له دور كبير في مقاومة تعليم ثيئودور المصيصي من على منبر الكنيسة. ويقول هؤلاء المؤرخون إنه بدا كمحامٍ عن الأرثوذكسية، وكان شديد الغيرة على إيمان الكنيسة. ولكنه كان يحب الخطابة ويثير الشعب لكي يصفق له، وكانت رغبته في جمع الجماهير حوله هي أحد مشاكله الروحية. بعد نياحة الأسقف Sisinnius رُشِّحَ لكرسي القسطنطينية وتوقع معارفه أن يصبح يوحنا ذهبي الفم الثاني، وربما توقع نسطور نفسه أن يقوم بهذا الدور بعد رسامته في ٤٢٨م، ويمكن أن نرى هذا في عبارة مستورة نقلها عنه المؤرخ الكنسي سقراط، إذ قال للإمبراطور: "أعطني الأرض وقد تطهرت من الهراطقة، وأنا أعطيك السماء، ساعدني لكي أشُن حرباً على الهراطقة، وأنا أساعدك لكي تحارب إمبراطورية فارس"[٢٦].

وهكذا يكون قد أغوى نسطور - بفصاحته - الغوغاء على إشعال النار في معبد الأريوسيين في القسطنطينية، ونال أول لقب شعبي وهو "صاحب الحرائق - Incendiarg" وطارد باقي الهراطقة بقوة الشرطة ومساعدة الإمبراطور.

(٢٥) راجع: سوزومين ٨: ٢٩ - وثيئودوريت ٤: ١٢ - وجناديوس البيزنطي في كتابه De Scrip. Eccl فقرة ٥٣.

(٢٦) سقراط ٧: ٢٩.

لقد كان نسطور ناسكاً حقيقياً – حسب شهادة مؤرخي الكنيسة – ولكن النسك لم يساعده على كبح محبته للشعبية وإذكاء مشاعر الغوغاء والعامة من الناس.

تبادل الاتهامات يخلق الانقسامات:

حسب شهادة القديس كيرلس في رسالتيه رقم ٦ ورقم ١١ كان أول من هاجم لقب والدة الإله هو دورثيؤس أسقف Marcianople وهو صديق نسطور. ونقل القس أنسطاسيوس هذا الهجوم إلى كنيسة القسطنطينية[٢٧]، ولم يتوقف عن الهجوم؛ لأن نسطور ساعده وأيَّده في الهجوم، مما جعل الشعب ينقسم إلى قسمين، ولم يساعد هذا الانقسام على حل الموضوع. ووجه القسم الأرثوذكسي تهمة إنكار لاهوت المسيح إلى أسقفهم واعتبروه من أتباع بولس الساموساطي[٢٨]، وهي تهمة غير صحيحة، ولكنها أشعلت نار الانقسام أكثر فأكثر.

حاول نسطور تفادي الصدام، ولذلك استبدل باللقب القديم "والدة الإله Θεοτοκος لقب والدة المسيح Χριστοτοκος وكان يظن أن اللقب الجديد يمكنه أن يطفئ نار الانقسام؛ لأن المسيح هو إله وإنسان معاً، وحتى هذه اللحظة كان نسطور حسن النية حسب شهادة المؤرخ اللاتيني المعاصر لنسطور والذي ترجم كل عظات نسطور إلى اللغة اللاتينية Marius Mercater.

سوء فهم لقب والدة الإله وسوء نية نسطور:

يقول نسطور في العظة الثالثة:

"يضع الأريوسيون الكلمة بعد الآب وتحته مباشرةً، أمَّا الآن فهؤلاء الناس الذين يقولون إن مريم هي والدة الإله، والذين يقولون إن الله وُلِدَ منها يجعلون مريم أقدم من الله، ويجعلون اللاهوت مولوداً منها، مع أن الكلمة له طبيعة غير طبيعة مريم وهي طبيعة لا تولد ولا تلد"[٢٩].

(٢٧) سقراط ٧: ٣٢.

(٢٨) المرجع السابق.

(٢٩) عظات نسطور العظة الثالثة كما نشرها Marius Mercator المجلد الأول فقرة ٧٦٣.

وسوء نية نسطور ظاهر، فهو يريد الدفاع عن القس أنسطاسيوس، وهو يعلم أن الكنيسة المقدسة لا تُعلِّم بأن الله يُولد كما يُولد البشر، أي يبدأ وجوده بالميلاد كما يبدأ وجود أي إنسان.

واستدعى نسطور الأسقف بركلوس Proclas للوعظ، وكان يقيم في القسطنطينية رغم أنه رُسِمَ لرعاية إيبارشية Cgzicas إلاَّ أن الشعب رفض أن يقبله، فظل يعيش في القسطنطينية، ووعظ بركلوس عن لقب والدة الإله بأرثوذكسية، وشرح معناه بدقة تامة وأثار حماس الحاضرين. ووجد نسطور نفسه محاصراً، فرد على عظة بركلوس بعظة أخرى مماثلة قال فيها:

> "من السخف أن يقال إن الكلمة وُلِدَ مرتين، أزلياً من الآب، وزمانياً من مريم؛ لأن كل من يقول إن الله وُلِدَ من مريم يجعل التعليم المسيحي فكاهةً في أفواه الوثنيين؛ لأن الوثني سيقول أنا لا أستطيع أن أعبد إلهاً يُولد ويموت ويُدفن. ومن الواضح أن الذي وُلِدَ ومات ودُفن هو إنسان وليس الله".
>
> (المرجع السابق فقرة ٧٧٥).

هذه العبارة تعبِّر عن جهل نسطور، وعن سوء نية يظهر فيه إلغاء الاتحاد بين اللاهوت والناسوت.

وقد حفظ لنا Mercator فقرة أخرى من عظة قيلت بعد الرد على بركلوس يقول فيها نسطور صراحة ضد الذين يقولون بأن ابن الله صُلِبَ على الصليب:

> "يقولون إن اللاهوت صار مائتاً Mortal .. بيلاطس لا يستطيع أن يصلب اللاهوت، وإنما رداء اللاهوت. ولم يكن الكلمة هو الذي لُفَّ بأقماط في المذود، ولا بالكتان عندما دفنه يوسف الرامي. مَن يعطي الحياة لا يموت..".
>
> (المرجع السابق فقرة ٨٠١).

وعبارات مثل: "ذاق الموت بالجسد"، أو "وُلِدَ أزلياً من الآب ولكن في الزمان

ولأجلنا ذاق الميلاد الإنساني"، وهي عبارات شائعة ومعروفة في صلوات الكنائس الشرقية كلها قبل ميلاد نسطور نفسه، كانت كافية لأن تؤكد أن نسطور قد ترك الطريق المستقيم وبدأ يسلك طريق الهراطقة.

وكما ذكرنا من قبل[٣٠]، إن الهرطقة هي "اختيار" و"رفض"، حيث يختار الهراطقة جميعاً جزءاً صحيحاً من الإيمان، أو عبارات جيدة جداً ومقدسة لكي يجعلوا منها الإيمان كله، فيرفضون ما لا يتفق مع فكرهم الخاص. وقد ميَّز القديس أثناسيوس بين المعنى الكنسي للإسفار، والمعنى الشخصي الخاضع للأهواء، فالمعنى الكنسي يرتبط دائماً بالممارسة وبالتقليد أو التسليم الكنسي، أمَّا المعنى الشخصي فهو رأي شخصي لا خطر منه بالمرة إلاَّ إذا قدَّم تفسيراً معوجَّاً لحقائق الإيمان[٣١].

لماذا لا يتراجع الهراطقة؟

كان نسطور زعيماً شعبياً توفرت له رخامة الصوت وقوة الفصاحة. ووجد نسطور في الكهنوت ضالته المنشودة، حيث قيادة الجماعة والحصول على مركز الصدارة. وكان ينقصه – كقائد – بصيرة الخادم، وتواضع المسيح، وروح التسامح والبذل. فقد دخل خدمة الكهنوت حسبما رأينا لكي يطهِّر الأرض من الهراطقة، ولكي يكون القوة التي تسند الإمبراطور الروماني ضد الفرس. وهكذا كانت حركاته وسكناته تحت رقابة الشعب، وتحوَّل الشعب إلى صنم يعبده القائد، ووجد نسطور في زعامته ومكانته تحقيقاً لكل ما كان يحلم به من قوة .. وتعذَّر عليه التراجع عن العبارات الغامضة، وعن مصطلحات جديدة لا تجيب على أسئلة صحيحة وهامة عن اتحاد اللاهوت بالناسوت. وتحولت حياة المسيح إلى شبه مسرحية هزلية. فقد لَبِسَ الابنُ الناسوتَ، ولم يختبر وهو في الناسوت أي شيء، لم يذق حتى موت الإنسان بالجسد، وبالتالي أصبحت حياة المسيح هي حياة إنسانية فقط. هي حقا إنسانية، ولكنها ليست إنسانية فقط، بل باتحاد الكلمة بما هو إنساني، ذاق اللاهوت كل

(٣٠) راجع بالتفصيل دراستنا: التمييز بين العقيدة والهرطقة والرأي، منشورة على موقع www.coptology.com

(٣١) راجع بتفصيل أوفى: مجال الإيمان أو قاعدة تفسير الكتاب المقدس عند القديس أثناسيوس الرسولي. د. جورج حبيب بباوي: المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي، منشور على موقع www.coptology.com.

ما هو خاص بالناسوت، وذاق الناسوت كل ما هو خاص باللاهوت حسب تسليم الآباء السابقين على عصر نسطور ما عدا الخطية وحدها. ويعرف هذا باسم شائع في كتب اللاهوت القديمة والحديثة Communicatio idiomatum أي تبادل الصفات الذاتية أو الخواص الأقنومية.

المبحث الثاني

الحوار اللاهوتي على المستوى الإقليمي

كانت أخبار نسطور قد انتشرت في كل مكان. كان بحارة الإسكندرية الذين يحملون القمح من مصر إلى بيزنطة قد نقلوا ما يحدث. وكان رد فعل القديس كيرلس هو رسالة عيد الفصح في عام ٤٢٩م إلى رهبان مصر، فنَّد فيها ما ورد في عظات نسطور دون أن يذكر اسمه، ودون أن يوجِّه له اتهاماً واحداً. وشرح القديس كيرلس في الفقرات ١٨، ١٩، ٢٠ من رسالته تعليم الآباء في الاتحاد ومعنى لقب والدة الإله[٣٢]. وشرح القديس كيرلس في الفقرة ٢٥ معنى آلام المسيح وقال:

> "تألم بالجسد كإنسان وذاق الموت بالجسد، ولكن كإله أباد الموت، وكان لا يستطيع أن يحقق خلاصنا بواسطة طبيعته الإلهية، إذا لم يكن قد قَبِلَ الموت لأجلنا في طبيعته الإنسانية"[٣٣].

وهكذا لم يكن في قدرة القديس كيرلس أن يكتب حرماً أو يصدر أي قرار إلاَّ بعد أن يسمع من نسطور وبعد محاكمة. الخلاف واضح، وتعليم نسطور لا يتفق مع الإيمان، ولكن لا يمكن الحكم على هذه الأمور الإيمانية من طرف واحد فقط. هذا ضد كل ما تعرفه الكنيسة من إيمان وقانون كنسي، بل هو ضد ما هو مقرر في القانون الروماني المدني الذي يحكم الإمبراطورية.

وكتب القديس كيرلس رسالة إلى نسطور يشرح فيها الإيمان، وأجاب نسطور بعبارات جارحة ولم يقدَّم شرحاً وافياً، بل لجأ إلى موضوع آخر شخصي بحت لا علاقة له بالإيمان، وهو لجوء ثلاثة من أبناء كنيسة الإسكندرية إلى القسطنطينية بشكوى ضد القديس كيرلس الذي اتهم بأنه:

(٣٢) سوف نستخدم كتاب Mansi تاريخ المجامع المجلد الرابع ابتداء من ص ٥٨٧ وما بعدها فهو يحتوي على كل الوثائق الكنسية.
(٣٣) الرسالة الأولى للقديس كيرلس – المرجع السابق ص ٥٩٩.

– أهمل رعاية الفقراء والمرضى.

– سرق وبدَّد أموال وقف في ضاحية من ضواحي الإسكندرية.

واستضاف نسطور هؤلاء، وربما ساعدهم للوصول إلى القصر الإمبراطوري[٣٤] ولكن القديس كيرلس حذَّر من خلط المسائل الشخصية بالأمور الإيمانية.

وتحرك نسطور نحو أسقف روما لكي يضمن أكبر قدر ممكن من التأييد، وبات من الواضح أنه لا يقبل السكوت ولا التراجع، وأنه يدبر صراعاً أوسع وأكبر تشترك فيه كل الكنائس.

كان لنسطور مشكلة مع كنيسة روما، فقط أعطى حق اللجوء لعدد من قادة الهرطقة البيلاجية في القسطنطينية، فكتب رسالة إلى أسقف روما سلستين Coelestine وقال فيها دون أن يذكر اسم القديس كيرلس:

> "إن عدداً من الهراطقة الذين يخلطون بين الأريوسية والأبولينارية يعلِّمون بأن اللاهوت اختلط بالناسوت في المسيح ويجدِّفون مُدَّعين بأن كلمة الله الابن أخذ بداية كيانه عندما وُلِدَ من مريم والدة المسيح، وإن اللاهوت دُفِنَ في القبر مع الناسوت ... بل يتجاسر هؤلاء ويقولون إن العذراء مريم يجب أن تسمى والدة الإله، وهو لقب غير معروف في الأسفار المقدسة ولا عند الآباء"[٣٥].

ومن نص نسطور ندرك أن أي سؤال أو خلاف حول أي مسألة إيمانية، يجب أن يجيب عليه كل إنسان من:

– الأسفار المقدسة.

– الآباء.

وهنا يكشف نسطور عن اهتمامه بقواعد البحث، وجهله بما تركه الآباء ... فقد كان لقب والدة الإله لقباً معروفاً، واستخدمه القديس أثناسيوس وغيره من الآباء،

(٣٤) الرسالة الرابعة للقديس كيرلس – المرجع السابق ص ٨٨٧.

(٣٥) Mercator, p 178.

مثل يوحنا ذهبي الفم .. فما هو عذر نسطور؟ لا ندري .. ولكن رغبته في الشجار واضحة.

ويتقدم نسطور خطوةً أخرى في طريق الشجار باتهام القديس كيرلس بأنه يبعث هرطقة أريوس وأبوليناريوس من جديد[٣٦]. وهي تهمة بلا دليل بالمرة، بل تؤكد جهل نسطور بالفرق بين الهرطقتين؛ لأن أبوليناريوس أسقف اللاذقية لم ينكر الإيمان بإلوهية الابن، بل كان يعترف بمساواة الآب والابن ووحدانية جوهر الثالوث.

وبكل أسف، إن توجيه الاتهامات بلا دليل بالمرة يكشف عن جهل الذين يتهمون، وهو موقف صبياني خطير، يلعب فيه الكبار لعبة خطرة جداً بنار حامية قادرة على أن تدمر حياة الكنيسة. وقد قام بهذا الدور – حسب كل الدراسات المعاصرة – يوحنا الإنطاكي ووجَّه ذات الاتهام: الأريوسية والابولينارية للقديس كيرلس، بل وقطعه من الشركة دون أن يسمح له بالدفاع عن نفسه؛ لأنه كان يعلم تمام المعرفة أن التهمة بلا سند، وكان ظهور القديس كيرلس السكندري أمام المجمع قادراً على أن يحطم الاتهام وأن يرد الاتهام إلى صاحبه؛ لأنه تجاوز القوانين الكنسية التي لا تسمح بالمرة بالاتهامات بدون الشهود والأدلة[٣٧].

(٣٦) المرجع السابق.

(37) C.F. Hefele A History of the Counsils of the Church Vol 3 pp 53 ff.

المبحث الثالث

الحوار اللاهوتي على المستوى المسكوني

سبقت اجتماعات المجمع المسكوني على الأقل مجمعين مكانيين في روما سنة ٤٣٠م وفي الإسكندرية في نفس السنة. كان البابا الروماني قد أمر سكرتيره Marcator بترجمة كل عظات نسطور إلى اللغة اللاتينية. وجاء القرار في روما حسب التسليم الرسولي، بل حفظ لنا سكرتير الجلسة نص خطاب البابا الروماني سلستين وكان القرار هو:

> "يؤكد المجمع أرثوذكسية لقب والدة الإله Θεοτοκος ويعبِّر الآباء عن حزنهم الشديد لخطأ نسطور وتعليمه المخالف للإيمان ويدعو نسطور إلى أن يتراجع عن أفكاره في خلال عشرة أيام، وهي المدة التي حددها القانون الكنسي. فإذا لم يتراجع يحسب مقطوعاً من شركة الكهنوت"[٣٨].

وأرسل المجمع قراره إلى الإسكندرية وإنطاكية معاً في وقت واحد.

الإنذار قبل القطع من الكهنوت:

لم يمثُل نسطور أمام مجمع كنيسة روما ولم يحاكَم، وبالتالي كانت كل أفكاره هي آراء خاطئة، وطالبه المجمع بالتراجع عنها في خلال عشرة أيام، وهذا يعني أنه ترك الباب مفتوحاً أمام نسطور للتراجع، وعندما لم يتراجع نسطور اعتُبِر مقطوعاً من الكهنوت، وهو قرار لا يمنع صاحبه من التناول، وإنما من ممارسة وخدمة الأسرار؛ لأن أي خطأ لا يعاقب بعقوبتين.

(٣٨) راجع Mansi 4: 1017.

مجمع الإسكندرية:

كان إنذار كنيسة روما بقطع نسطور إذا لم يتراجع عن تعليمه بمثابة حكم يؤكد صحة التعليم الأرثوذكسي للقديس كيرلس، ومع ذلك فإن مجمع الإسكندرية لم يتوقف عند حكم كنيسة روما، بل اصدر حكمه في عبارات قاطعة بعد أن:

شرح أولاً، الإيمان الأرثوذكسي كما حدده مجمع نيقية.

وأكَّد ثانياً، قرارات حرمان تعليم أريوس، وأريوس نفسه.

ومن ثمَّ أصدر ثالثاً، الحكم العقيدي التالي:

> "ونحن نعترف بذات إيمان الآباء ونسير معهم في نفس الطريق الملوكي، نؤكِّد أن الابن الوحيد كلمة الله أخذ جسداً من العذراء الطوباوية وجعله جسده الخاص به، وتنازل وقَبِلَ أن يُولد ميلاداً إنسانياً، فوُلِدَ من امرأة دون أن يتخلى عما له، ومع أنه تجسَّد إلاَّ أنه ظل كما كان أزلياً الإله الحقيقي، ولم يتحول جسده إلى طبيعة اللاهوت، كما لم تتحول طبيعة الكلمة إلى ناسوت؛ لأن الطبيعة الإلهية لا تقبل التغيير. ومع أنه كطفلٍ كان في حضن أمه، إلاَّ أنه كان في نفس الوقت الكلمة الذي يملأ كل مكان ويضبط كل الأشياء مع أبيه؛ لأن اللاهوت لا يخضع لحدود ولا يُحصر في مكان. ولكن لأن الكلمة اتحد أقنومياً بالجسد، فإننا نعبُد الابن الرب الواحد ربنا يسوع المسيح ولا نقسِّمه إلى إله وإنسان، ولا نؤمن بأنه كان اتحاداً شرفياً في الشرف والقوة".

ولم يتوقف المجمع عند هذه العبارات بل أكد:

١- إننا لا نُعلِّم بمسيحين: واحدٌ منهما هو كلمة الله، والآخر هو ابن امرأة، بل نعترف بمسيحٍ واحدٍ، الكلمة الإلهي الذي اتحد بالناسوت وجعله جسده الخاص به.

٢- ولا نقول بأن الكلمة الإلهي حلَّ في إنسان، وأن الإنسان هو الذي وُلِدَ من العذراء القديسة كما يُولد سائر البشر، ولا ندعو المسيح "الإنسان المتوشِّح بالله"؛ لأننا عندما نقول إن ملء اللاهوت حلَّ في المسيح (كولوسي ٢: ٩)، فإننا نؤكد أنه ليس مثل حلول اللاهوت في القديسين، بل في المسيح اتحد جوهر اللاهوت بالناسوت اتحاداً حسب الطبيعة Κατα φυσιν مثل اتحاد النفس بالجسد في الإنسان. وهكذا نعترف بمسيح واحد، ابن واحد، رب واحد، ولم يكون من قبيل الاتصال Συναφεια أن اتصلت الطبيعة الإلهية اتصالاً شرفياً وحَّد الطبائع؛ لأن بطرس ويوحنا اللذان نالا ذات الكرامة والشرف وتساويا في الرتبة الرسولية وكانا من الرسل القديسين إلاَّ أن اتحادهما لم يجعلهما أقنوماً واحداً.

٣- وحيث أن العذراء القديسة ولدت - حسب الجسد - الله الذي اتحد أقنومه بالجسد، فإننا ندعوها والدة الله".

وختم المجمع حكمه بالفصول الإثنى عشر التي تعرف في المصادر الغربية باسم الحروم الإثنى عشر. وهي حكم مجمع الإسكندرية وتنسب إلى هذا المجمع في كل الوثائق، ولا تنسب إلى القديس كيرلس السكندري إلاَّ في المصادر المتأخرة، نظراً لأنها حكم مجمع وليست رأي إنسان[٣٩].

جوهر أرثوذكسية قرار مجمع الإسكندرية:

أولاً: من العبارات اللافتة للنظر، عبارة المجمع: "نحن نعترف بذات إيمان الآباء، ونسير معهم في نفس الطريق الملوكي". لأن أي قرار عقيدي لا يمكن أن يصدر دون أن يكون معبِّراً عن روح الكنيسة الواحدة الجامعة المقدسة. هذا هو المقصود بإيمان الآباء.

ثانياً: لعل القارئ لمح عبارات متكررة: ربٌ واحد - مسيحٌ واحد، هذه عبارة مجمع نيقية، وهي قبل ذلك عبارة الرسول بولس نفسه، فهي العبارة الوحيدة

(39) Hefele, Opcit pp 31 ff.

التي استطاعت أن تكشف نفاق نسطور وكذبه. وكما سنرى بعد ذلك ظلت عبارة قانون الإيمان "ربٌ واحد يسوع المسيح" هي مفتاح وجوهر الأرثوذكسية، وهو ما يكرره الفصل الثاني أو الحرم الثاني من الفصول الإثنى عشر المشار إليها سلفاً.

صحة الحكم على تعليم نسطور:

لم يكن الحكم على نسطور هو حكم القديس كيرلس السكندري وحده ... هذا خطأ تاريخي لا يمكن السكوت عليه، بل هو حكم الكنيسة الجامعة وشهادة قديسها كما أبرزه القديس كيرلس، وقام فيه بدور بارز وكبير، ولذلك أرسل المجمع رسالةً إلى كهنة ورهبان كنيسة القسطنطينية، وقد أرسل هذه الرسالة مع أسقفين هما ثيؤبنتوس وكاربوس والقس بوتامون والقس دانيال .. وسُلِّمت هذه الوثائق إلى نسطور في كنيسة أجيا صوفيا يوم الأحد يوم اجتماع الشعب، وهو اليوم الرسمي والمقدس لكل ما يخص الكنيسة.

وكان رد نسطور أن نشر أثنى عشر حرماً كتبها بيده، ولم يجد في كنيسته من يسنده .. وكانت كل حروم نسطور تدور حول نقطة واحدة، وهي إنكار اتحاد اللاهوت بالناسوت .. وهو ما يجعل القديس كيرلس السكندري هرطوقياً ومعه مجمع كنيسة الإسكندرية.

مجمع أفسس المسكوني عام ٤٣١م:

اجتمع المجمع في ٢٢ يونيو عام٤٣١م تلبية لرغبة الإمبراطور ثيؤدوسيوس وتأخَّر عن الحضور يوحنا الإنطاكي وأساقفته من سوريا، ومع ذلك أرسل رسالة إلى القديس كيرلس يؤكد فيها أنه لن يتأخر عن الحضور سوى خمسة أو ستة أيام[٤٠] وانتظر الأساقفة ١٦ يوماً ولم يحضر يوحنا الإنطاكي، وساد الاعتقاد بأنه يريد الغياب حتى يتفادى الاشتراك في الحكم على نسطور، وهو صديق شخصي له. ولكن ممثل الإمبراطور كانيديان لم يكن يرغب في الانتظار أكثر، فأسرع هو شخصياً

(٤٠) راجع Mansi 4: 1121.

وقرأ خطاب الإمبراطور بحضور أكبر عدد من الأساقفة. وهكذا بدأ المجمع جلساته بحضور ١٦٠ أسقف، وتوافد باقي الأساقفة ما عدا مجمع كنيسة إنطاكية، وعندما قرر المجمع قطع نسطور وقع الأساقفة على القرار وكان عددهم ١٩٨ أسقفاً[٤١].

وكما ذكرنا من قبل، اختار المجمع القس السكندري بطرس سكرتيراً للمجمع وكان الأسقف ممنون Memnon أسقف أفسس هو أول مَن طلب الكلمة، وأشار إلى غياب يوحنا أسقف إنطاكية وجماعة مجمع إنطاكية، وأن المدة التي حددها يوحنا الإنطاكي ٥ أو ٦ أيام قد مرت، بل أصبحت ١٦ يوماً. وتكلم القديس كيرلس وطلب افتتاح المجمع رسمياً، وتقديم الوثائق الخاصة بالمشكلة مع نسطور، وضرورة حضور نسطور شخصياً.

حسب المصادر التاريخية، كان نسطور قد حضر مع غيره من الأساقفة، ولكنه كان الوحيد الذي جاء ومعه حرسٌ خاص من القسطنطينية.

ضرورة الحضور الشخصي:

أرسل المجمع وفداً من الأساقفة ثلاث مرات يطلب حضور نسطور على فترة ثلاث أيام بعكس ما هو شائع من أن نسطور دُعي للحضور ثلاث مرات في يوم واحد ولم يحضر.

الوثائق الأرثوذكسية:

قدم القديس كيرلس الوثائق التالية:
الخطابات الثلاث التي أرسلها لنسطور، وحكم مجمع الإسكندرية.

تحديد الموضوع:

طلب الأسقف جوفينال Juvenal ضرورة قراءة قانون الإيمان النيقاوي لتحديد الموضوع الخاص بالإيمان.

---

(٤١) المرجع السابق، 5: 770.

الوثائق النسطورية:

قدم القديس كيرلس خطابات ورد نسطور مع الحروم الإثنى عشر.

القرار الأول:

"طلب الأسقف ممنون أسقف أفسس ضرورة أخذ الأصوات على صحة الوثائق الأرثوذكسية وأنها تتفق مع الإيمان الذي قرره الآباء. وتم التصويت بعد أن طلب ١٢٦ أسقفاً حق الكلمة، وسجَّل القس بطرس السكندري كلمات هؤلاء وبعضها موجز، ولكن كلها تدور حول صحة رسائل القديس كيرلس السكندري، وصحة قرار مجمع روما ومجمع الإسكندرية. وجاء القرار الأول يخطئ نسطور وابتعاده عن التعليم الأرثوذكسي؛ لأن ما ورد في خطاباته وعظاته لا يتفق مع الإيمان الذي قرره الآباء في نيقية.

القرار الثاني:

عندما رفض نسطور المثول أمام المجمع، بل أمر حرسه الخاص بالاعتداء على الأساقفة ... قرر الآباء إن عدم حضوره يُعد تهرباً من مواجهة المجمع. وبعد مرور ثلاثة أيام وهي مدة كافية، صدر القرار بقطع نسطور، وجاء القرار مبنياً على:

١- قانون الإيمان النيقاوي.

٢- رسائل القديس كيرلس وحكم مجمع الإسكندرية.

٣- مقتطفات من كتابات الآباء وبالتحديد: البابا بطرس خاتم الشهداء – البابا أثناسيوس الرسولي – البابا الروماني يوليانوس – البابا الروماني فيلكس – البابا السكندري ثيئوفيلوس – الشهيد كبريانوس – القديس غريغوريوس النزينزي – القديس باسيليوس – القديس غريغوريوس النيسي – الأسقف اتيكوس Atticos أسقف القسطنطينية – الأسقف امفلوخيوس أسقف اكنيوم.

وجاء نص حكم المجمع مؤكداً:

١- لم يعرف هؤلاء الآباء رأي نسطور الذي يفصل فيه بين اللاهوت والناسوت.

٢- وجاءت عبارة البابا بطرس خاتم الشهداء وهي تقول: "الله الكلمة تجسَّد ووُلِدَ من رَحِم العذراء مريم". وبعد تقديم عبارات من القديس أثناسيوس الرسولي قال المجمع: "إن القديس أثناسيوس استخدم دائماً وبدون تردد تعبير والدة الإله الذي رفضه نسطور، وأن القديس أثناسيوس قال: "وُلِدَ الناسوت من والدة الإله مريم"، ولأننا نقول: "إن الكلمة نفسه وُلِدَ من مريم، فصارت القديسة مريم تدعى والدة الإله؛ لأنها حقاً ولدت كلمة الله ابن الله".

٣- وكانت العبارة من القديس غريغوريوس النزينزي: "نحن لا نفصل الإنسان من جوهر اللاهوت، بل نعلن ونعترف أنه هو واحد، وأنه هو نفسه الذي لم يكن منذ الأزل إنساناً، بل الإله، الابن الوحيد الأزلي، والذي في آخر الأيام تجسَّد وتأنس من أجل خلاصنا"[٤٢].

أرثوذكسية قرار مجمع أفسس المسكوني الثاني:

استمد المجمع أرثوذكسيته من إيمان الآباء السابقين، وأخذ بأقوالهم لكي يؤيد قراره بعدم أرثوذكسية تعليم نسطور وعدم شرعية كل ما جاء في عظاته.

كان المجمع هو صوت الجماعة وشهادتها، ولم يكن رأي فردٍ أو شخصٍ واحدٍ، بل شهادة "جماعية" من أساقفة الكنيسة الجامعة، أي شهادة كاثوليكية، أي شهادة إجماع.

كان محور الحوار هو قانون الإيمان النيقاوي، وبالتالي كان لدى المجمع قاعدة إيمان ومقياس للأرثوذكسية، ولم يكن بالمرة رأي شخصٍ واحدٍ ضد شخصٍ آخر، بل صحة تعليم الكنيسة الجامعة ضد خطأ ظاهر قُدِّمت ضده الأدلة من أقوال الآباء القديسين.

(٤٢) راجع Mansi 4: 1170 – 1178.

الفصل الرابع

الأرثوذكسية في صورتها وجوهرها

لقد آن الأوان لكي نعود إلى استخدام كلمة "كاثوليكية" بعد أن تمسك بها أبناء كنيسة روما، وصارت اسم علم يجعلنا نحن الأرثوذكس نخاف أن نقول بأننا كاثوليك، أي مجمعيين وجامعيين؛ لأننا نتبع إيمان المجامع المسكونية الثلاثة، ولأننا نقبل شهادة الكنيسة الجامعة، وهي الشهادة التي قدَّمها مجمع أفسس ابتداءً من القديس البابا بطرس خاتم الشهداء.

ولا يجب أن نتحول عن اسم "الجامعة" أو الكاثوليكية؛ لأننا نخسر أهم ما يميز إيمان الكنيسة الجامعة، وهو ما يقوله أحد قديسي الغرب، وهو القديس Vincent [٤٣] "يجب أن نراعي بكل دقة ما تؤمن به الكنيسة الكاثوليكية، وهو أننا نتمسك بالإيمان الذي سُلِّم في كل مكان وآمن به الكل دائماً، لأن هذا هو الإيمان الصحيح أي الإيمان الكاثوليكي؛ لأن الاسم نفسه يؤكد أنه الإيمان الذي يتمسك به الكل في كل أرجاء المسكونة" وهذه هي القاعدة التي نتبعها:

- إيمان الكنيسة في كل مكان — الجامعة
- إيمان السابقين — التاريخ
- إيمان الممارسة — الصلوات

ونحن نتبع الإيمان المسلَّم في كل مكان عندما نعترف جميعاً بإيمان واحد، تعترف به الكنيسة في كل مكان. والإيمان القديم هو إيمان السابقين الذي لا يجب أن نتركه؛ لأنه إيمان آبائنا وأجدادنا القديسين، والذي لا نملك أن نتخلى عنه. وإيمان الممارسة هو الإيمان الذي حدَّده السابقين علينا بكلمات ومصطلحات، يعلنه الكهنة والمعلِّمين (في الصلوات)"[٤٤].

الأرثوذكسية ليست حكم شخص، ولا هي رأي شخص:

هكذا يجب أن نعود بكل سرعة إلى الإيمان المسلَّم إلى القديسين، والذي دُوِّن في قانون الإيمان وفي كتابات الآباء، ويُعلَن في الصلوات. الإيمان العام أو إيمان الكنيسة

(٤٣) تنيح حوالي سنة ٤٣٧م.

(٤٤) مجموعة الآباء اللاتين مجلد ٥٠ عامود ٦٤٩. راجع آباء ما بعد نيقية مجلد ٩ ص ١٣٢ من الترجمة الانجليزية.

الجامعة، الإيمان الآبائي، الإيمان الذي هو رُكن الصلوات عندنا، وهو حسب قرار مجمع الإسكندرية السابق ذكره ٤٣٠م "الطريق الملوكي الذي نسير فيه" مع الآباء .. وهذا الطريق الملوكي هو الإيمان الذي سُلِّم في كل مكان، وآمن به الكل.

الأهمية القصوى لصوت الكنيسة الجامعة، أي الكاثوليكية:

نستطيع من التاريخ الكنسي – حسبما ذكرنا من قبل – أن نعرف الإيمان الذي سُلِّم في كل مكان وآمن به كل معلمي الكنيسة. هذا الإيمان نراه بكل وضوح في كتابات آباء الكنيسة في القرون الخمسة الأولى، أي قبل الانقسام المؤلم والحزين الذي حوَّل شهادة الكنائس الإقليمية إلى شهادة مبتورة تنقصها شهادة الكنيسة في كل مكان. وكانت ليتورجية عصر الكنيسة الواحدة الوحيدة المقدسة الكاثوليكية تقول: "هذه الكائنة من أقاصي المسكونة إلى أقاصيها"، أي في كل مكان .. ورغم الانقسامات التي حدثت منذ ٤٥١م إلاَّ أن صوت الكنيسة الجامعة الكاثوليكية الكائنة من أقاصي المسكونة إلى أقاصيها لا زال مودعاً في الليتورجية، وهي رغم اختلاف اللغات: قبطية، سريانية، يونانية، أرمينية، حبشية، إلاَّ أنها تحمل ملامح الكنيسة الواحدة وإيمانها وتقواها في عبارات وكلمات الصلوات والتراتيل القديمة.

وشهادة الكنيسة الجامعة مدونة في القرون الخمسة الأولى، ليس فقط في الليتورجيات، بل في كتابات الآباء. ومع أننا نلاحظ في العصر الحديث انفصال دراسات الليتورجيات عن دراسات الآباء في مطلع هذا القرن، إلاَّ أن الموقف قد تغيَّر منذ عدة عقود، إذ بدأ علماء اللاهوت من كافة الكنائس في العودة إلى الليتورجيات والآباء، وحصر المفردات الخاصة بالعبادة والإنسان والثالوث. وها نحن ننبه إلى أن خروج كنيستنا الأرثوذكسية القبطية من مأزق الاتهامات ومن تحجر الفكر اللاهوتي لن يتم إلاَّ بالعودة إلى الليتورجية.

نموذج من تسبيح واعتراف بالإيمان الأرثوذكسي

الإبصلمودية السنوية	القديس كيرلس الكبير
الله الكلمة الذي صار إنساناً بغير افتراق واحد من اثنين لاهوت قدوس بغير فساد مساو للآب وناسوت طاهر مساو لنا كالتدبير.	يوجد مسيحٌ واحد، وابنٌ واحد من الاثنين. رسائل القديس كيرلس إلى نسطور ويوحنا الإنطاكي – مركز دراسات الآباء: ١٩٨٨ – الرسالة رقم ٤ ص ١٣.

وهكذا نلاحظ أنَّ الاعتراف بالإيمان هو جزء جوهري من التسبيح الذي لا يمكن فصله كموضوع فلسفي جاف.

الطبيعة الإلهية المتحدة بطبيعة بشرية:

لم يتَّحد البشر بالثالوث، بل اتحد الثالوث بالبشر في تجسد ابن الآب الوحيد الذي هو واحدٌ مع الآب في الجوهر. هذا هو تنازل الله الذي يقول عنه قانون الإيمان النيقاوي: "هذا الذي لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم". ونزول الابن من السماء يعبِّر عنه العهد الجديد بكلمة أخرى وبفعل آخر له دلالة عظيمة في إنجيل يوحنا، وهو فعل "أرسل"، فالآب أرسل الابن إلى العالم. ومجيء الابن إلينا أي نزوله وإرساله من عند الآب يأخذ مكاناً هائلاً وخطيراً في تسابيح وصلوات الليتورجية، أحياناً باستخدام رموز خيمة الاجتماع في القطع النادرة الخاصة بوالدة الإله، وأحياناً باعتراف علني بالإيمان. ولاحظ أيها القارئ كيف تصيغ الليتورجية الإيمان المسيحي الأرثوذكسي وترتبه:

* تجسد الابن وتنازله.
* حلوله وميلاده من العذراء.
* تطبيق التغير الجذري الذي حدث بسبب التجسد على المؤمنين.

"الغطاء المظلل عليه بالكروبين المصوَّرين،
أي الله الكلمة الذي تجسد منك أيتها التي بلا عيب".

ولا يقف التسبيح عند هذه النقطة، بل

"وصار تطهيراً لخطايانا وغافراً لآثامنا".

مثال آخر:

"أنت هي قسط الذهب النقي،
المخفي المن في وسطه".

هذا تسبيح لنعمة تنازل الله الكلمة وتجسده، ولكن مجيء الله إلينا كان ولا يزال مجيئاً من أجل الحياة، ولذلك تكمِّل القطعة الإيمان الأرثوذكسي إذ تقول:

"خبز الحياة الذي نزل من السماء وأعطى الحياة للعالم".
"وأنت يا مريم حملت في بطنك المن العقلي الذي أتى من الآب".
"وولدته بغير دنس وأعطانا جسده ودمه الكريمين، فحيينا إلى الأبد".

هذا الإيقاع يشبه النوتة الموسيقية حيث يبدأ اللحن بمفتاح النغمة، وهو تنازل الله لكي يصبح اللحن بعد ذلك كاملاً.

فالكلمة يتجسد من العذراء، هذا هو مفتاح اللحن، ولكن اللحن لا يتوقف عند ذلك، بل يستمر لكي يؤكد للشعب الواقف في الكنيسة أنه مدعوٌ إلى التسبيح والشكر، ليس فكرياً وعقلياً فقط، بل بالمشاركة الحقيقية في الأسرار، أي سر إرادة الثالوث في أن يرسل كلمته إلينا لكي يجعلنا نتحد به ونحيا.

وتأكيد عمل اللاهوت نفسه ومجيء الله تعبِّر عنه التسبحة السنوية بهذه الكلمات:

"بقى إلهاً على حاله (لم يتغير)
وصار إنساناً كاملاً (ضد هرطقة ابوليناريوس)
لكي يحل زلة آدم ويخلِّص مَن هلك
ويصيِّره مدنياً (مواطناً) في السموات

ويرده إلى رتبته الأولى".

وهكذا تقول التسبحة عن الحياة، وعن مجيء الله إلينا:

"البطن الواقع تحت الحكم، وولد الأولاد بوجع القلب،
صار ينبوعاً لعدم الموت.
ولدتِ لنا عمانوئيل ونقض (هدم) فساد جنسنا".

وبعد ذلك تعيد التسبحة كلمات (يوحنا ٣: ١٦) "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي نحيا به".

وما نلفت إليه النظر بشدة هو أنه لو كانت الكنيسة طبيعة بشرية فقط لتعذَّر عليها التسبيح، فما الذي يمكن أن نقوله نحن البشر الذين نقف على شاطئ الموت والفساد؟ ولكن، ولأن الحياةَ قد جاء، "وأشرق جسدياً من العذراء"، صرنا الآن نقف على شاطئ الحياة، نشرب من مياه الحياة، الروح القدس، ونتحد بالكلمة في المعمودية والميرون والإفخارستيا، وهو الاتحاد الذي يسكب فينا الحياة الإلهية "لكي نحيا به"[٤٥].

صوت مجمع نيقية في رسائل القديس كيرلس الكبير:

يكتب القديس كيرلس في رسالته الرابعة إلى نسطور:

"قال المجمع العظيم إن الابن الوحيد الجنس نفسه من الله الآب حسب الطبيعة، الإله الحق من إله حق ... وينبغي علينا أن نتبع هذه التعاليم والعقائد مدركين ماذا يعني أنه تجسَّد".

ومن ثمَّ يشرح الإيمان الأرثوذكسي حسب قانون الإيمان:

١- الكلمة قد وحَّد مع نفسه (ذاته) أقنومياً، جسداً مُحياً بنفس عاقلة، وصار إنساناً بطريقة لا يمكن التعبير عنها أو إدراكها.

(٤٥) راجع عبارة "في المسيح" في رسائل القديس أثناسيوس إلى سرابيون.

٢- الطبيعتان اللتان اجتمعتا [٤٦] معاً في وحدة حقيقية، مختلفتان، ومع ذلك المسيح واحد، وابن واحد من الاثنين.
٣- الكلمة قَبِلَ الولادة الجسدية لكي ينسب إلى أقنومه ولادة جسده الخاص.
٤- كلمة الله - حسب الطبيعة - غير مائت، وغير فاسد لكونه هو الحياة ومعطي الحياة. ولكن بسبب جسده الخاص ذاق الموت بنعمة الله لأجل الجميع كما يقول بولس (عب ٢: ٩)، لذلك يقال إنه هو نفسه قد عانى الموت لأجلنا ... ولكن كما قلت على وجه الدقة، فإن جسده ذاق الموت. وهكذا أيضاً عندما أرجع الحياة إلى جسده، يقال إنه قام"[٤٧].

ويعود القديس كيرلس إلى قرار المجمع العظيم في رسالته رقم ١٧[٤٨] مؤكداً:

"وإذ نتبع - من كل ناحية - اعترافات الآباء القديسين التي صاغوها بالروح القدس الذي كان ينطق فيهم" ، نقول:

١- الجسد لم يتحول إلى طبيعة اللاهوت، ولا طبيعة كلمة الله تغيَّرت إلى طبيعة الجسد (ذات المرجع رسالة ١٧ ص ١٣).

٢- لا نجزئ ولا نفصل الإنسان عن الله (المرجع السابق ص ٢٤).

٣- داس الموت أولاً في جسده الخاص؛لكي يعد الطريق إلى قيامة عدم الفساد أمام طبيعة الإنسان. (المرجع السابق ص ٢٨).

٤- سلطان الموت قد انحل بواسطته (المرجع السابق ص ٢٨).

ومن ثمَّ يطبِّق القديس كيرلس التعليم على الممارسة:

"وإذ نكرز بموت ابن الله الوحيد حسب الجسد، أي موت يسوع المسيح، ونعترف بقيامته من بين الأموات ... نقدم الذبيحة غير الدموية في الكنائس، وهكذا نتقبل البركات

(٤٦) اجتماع اللاهوت بالناسوت في المسيح هو الذي يؤسِّس اجتماع الله مع الكنيسة في وحدة واحدة. وهذا التعبير تعبير طقسي وهام جداً. راجع أيضاً رسائل القديس كيرلس، الرسالة الرابعة، ص ١٣ سبق الإشارة إليها.

(٤٧) المرجع السابق، الرسالة الرابعة ص ١٤ وما بعدها.

(٤٨) المرجع السابق ص ٢٢.

السرية ونتقدس، ونصير مشتركين في الجسد المقدس والدم ال كريم". (المرجع السابق ص ٢٩).

ما معنى الشركة في الدم والجسد:

١- نحن نفعل هذا ليس مثل أُناسٍ يتناولون جسداً عادياً، حاشا.
٢- ولا بالحقيقة جسد إنسان تقدَّس له صلة بالكلمة.
٣- بل جسد الكلمة الخاص بأقنومه المعطي الحياة حقاً.
(المرجع السابق ص ٢٩).

تجريد نسطور من الكهنوت، مع السماح له بالتناول:

جرَّد المجمع المسكوني الثالث نسطور من درجة الكهنوت، ولكن لم يشمل القرار، الحرمان من التناول. وحسب شهادات كل المؤرخين، كان نسطور قد نفي إلى الواحات الخارجة في صحراء مصر، وكان لا يزال حياً حتى بعد عام ٤٤٠م وهو العام الذي ربما كتب فيه كتابه المشهور "بازار هيراقليطس" الذي يدافع فيه عن نفسه ويشرح إيمانه. ولكن هنا نرى أن الواقع التاريخي نفسه جعل حكم القطع من الكهنوت بالنسبة لأريوس هو حكم بالحرمان من التناول، بينما كان حكم تجريد نسطور لا يشمل حكم حرمان من التناول، فقد ميَّز الآباء بين هرطقتين مختلفتين: الأولى تجديف على الثالوث، والثانية تجديف على التجسُّد، واعتبروا الثانية أقل خطورة من الأولى. وهكذا جاء قرار مجمع أفسس المسكوني الثالث والذي أعاد صياغته القديس كيرلس في رسالته رقم ٣٣ إلى أكاكيوس أسقف بيرويا يقول فيه عن نسطور:

"ورغم أن قداستكم ونحن والجميع قد احتملنا نسطور، بينما كان هو نفسه يجدف لفترة ثلاث سنوات، وكنَّا نعمل لنقوده بعيداً عن تلك التجاديف ... وفي النهاية فإن المجمع المقدس عزله عن ممارسة كهنوته كإنسان مريض بمرض غير قابل للشفاء"[٤٩].

(٤٩) رسائل القديس كيرلس – الجزء الثالث – ديسمبر ١٩٩٥ ص ٢٠.

وكما هو واضح من كلمات القديس كيرلس، لم يكن قرار المجمع بالقطع من الشركة، فهذا أفظع ما يمكن أن يصدر ضد مسيحي، وإنما القرار هو بالعزل عن ممارسة الكهنوت.

وكما نعرف من المصادر التاريخية، فقد استقر نسطور في مصر في الواحات الخارجة، وكان يسمح له بالصلاة وبالتناول. وإذا كان كتاب "بازار هيراقليطس" حسب النص السرياني هو من مؤلفات نسطور، فمن الواضح أنه تراجع عن مواقفه الأولى وعاد إلى الإيمان بتجسد ابن الله الوحيد، ولكن هذه قضية يحكم فيها الله قبل التاريخ، لأن علماء التاريخ يشكُّون في صحة ما كُتب بعد عزل نسطور.

الحرمان من التناول هو قرار قطع من شركة الكنيسة:

لا يملك القس أو الأسقف ولا رئيس الأساقفة حق حرمان شخص مهما كان. والحرمان من التناول ليس حقاً يملكه أي إنسان، بل هو إجراء كنسي يصدر بعد محاكمة وبعد تحديد الاتهام، وبعد إصرار المخطئ على رأيه، وبعد تقديم الأسباب التي أدت إلى القرار ... بعد كل هذا، يصبح قرار القطع من الشركة هو قرار بالمنع من التناول .. والعبرة هنا ليست في معنى هذه الكلمة أو تلك العبارة، بل هي في الممارسة. مَن يُمنع من التناول يُعد مقطوعاً من شركة الكنيسة.

يقول القديس كيرلس السكندري عن حزب نسطور في رسالته إلى الأسقف أكاكيوس، وعن تصرفات هؤلاء داخل المجمع:

> "لم يفكروا في الله ولا في الغيرة التي من أجلها اجتمعوا ... أظهروا لنا كل قسوة وبغضة غير أخوية، وأهانونا بشراسة في هذا المجمع المسكوني المقدس، بواسطة قطعنا من الشركة بدون محاكمة ...".
>
> (المرجع السابق ص ١٩).

وماذا تقول الدسقولية عن قرار الحرمان من التناول؟[٥٠]

"لأنه إذ مشى واحد عند البحر وزلق وأنت عوض معاضدتك إياه وجذبه إلى فوق، صرت تشبِهَهُ أيضاً ودفعته أسفل إلى البحر، فقد قتلت أخاك. كان يجب عليك بالحري أن تعضد الذي زلق لئلا يهلك تماماً، لكي يتأدب، والذي أخطأ أيضاً؛ لئلا يهلك الكل". (الدسقولية، فصل ٤: ٣ ص ٤٢١).

فالسلطان هو سلطان الروح القدس، ولذلك السبب عينه تقول الدسقولية:

"ويجب أيضاً أن تغفروا للتائبين، وإذا قال واحد من الخطاة بسريرة طاهرة: أخطأت يا رب" لوقته يجيبه الروح القدس: "إن الرب رفع خطيتك ولن تموت". (فصل ٤: ١٥ ص ٤٢٧).

وتذكِّر الدسقولية الكنيسة بهذه الحقيقة:

"لأنه ليس أحدٌ في الناس بغير خطية إلاَّ الذي صار إنساناً لأجلنا؛ لأنه مكتوب أنه ليس أحدٌ طاهراً من دنس ولو كانت حياته يوماً واحداً". (المرجع السابق ص ٤٢٨).

والعبارة الأخيرة كما يعرف القارئ هي أحدى العبارات الأساسية في أوشية الراقدين عندما تشفع الكنيسة في الراقدين. وقرار الحرمان الباطل هو قرار قتل كما تقول الدسقولية، ولذلك تحذِّر الشعب من القرار الباطل:

"مَن يتبع الراعي الشرير، موته ظاهرٌ قدامه، وهو يهلك من قبله، لأجل هذا يجب علينا أن نهرب من الرعاة المهلكين".

(المرجع السابق ص ٤٣٢).

وتطلب الدسقولية أن يكون الأسقف مثل الابن المتجسد، حتى أنها تقول:

"فإن كان يمكن، فليحمل الأسقف خطية ذاك (الذي أخطأ) عليه، وليجعله حراً. ويقول للذي أخطأ: أرجع أنت وأنا أقبل

(٥٠) الدسقولية، تعليم الآباء الرسل، إعداد وتعليق وتقديم دكتور وليم سليمان قلادة – الطبعة الأولى- ١٩٧٩.

الموت عنك، كما مات سيدي عني وعن الكل. لأن المسيح قال إنَّ الراعي الصالح يضع نفسه عن خرافه".

(المرجع السابق ص ٤٣٥).

تحذير الدسقولية من شهادة الزور:

تقول الدسقولية وكأن الكلام هو عن عصرنا:

"لا تقبل إليك شهادةً على أحد أقل من ثلاثة شهود .. ولا تكن شهادتهم بعداوة وحسد، لأنك تجد كثيرين يفرحون بالشر، وهم كثيرو الألسن، ذوو ثلاثة ألسنة، يبغضون الأخوة، مستعدون لتفريق قطيع المسيح. الذين شهادتهم إذا قبلتها بدون تمحيص دقيق، فأنت تفرِّق القطيع بعدم دين ..".

(المرجع السابق ص ٤٣٨).

تحذير الدسقولية من سرعة إصدار الأحكام بدون تمييز ولا محاكمة:

"والذي طُرِحَ من الكنيسة بعدم دين وبغير واجب .. تصير أنت سبباً لهلاكه". (المرجع السابق ص ٤٣٩).

كما تحذِّر من الأسقف القاتل والشاهد القاتل:

"وهذا اعلموه أن الذي يطرح غير المخطئ، أو لا يقبل الذي رَجِعَ، فقد قتل أخاه وسفك دمه. مثل قايين لما سفك دم هابيل أخيه، ودمه يصرخ إلى الله يطالبه بالثأر. لأن البار إذا قُتل مجاناً فهو يكون في راحة عند الله إلى الأبد .. هكذا أيضاً الذي يُفرَق باطلاً عند الأسقف".

(المرجع السابق ص ٤٤٠).

كما تقول الدسقولية للأسقف بشكل خاص:

"إن الأسقف الذي يطرح الشخص غير المخطئ، (هو) كمستهزئ (بالله).

هذا (الأسقف) شرير أكثر من قاتل إنسان؛
إذ لا ينظر إلى رحمة الله ولا يذكر صلاحه".

(المرجع السابق ص ٤٤١).

وتعود وتؤكد نفس العبارات:

"لأجل هذا، فإن الذي يطرح غير المخطئ،
هو شرير أكثر من قاتل الجسد ...".

(المرجع السابق ص ٤٤١).

لماذا؟ لأنه – حسب عبارة الدسقولية – يبدد قطيع المسيح "مفرِّق ما للمسيح" بل والأكثر من هذا يقاوم عمل المسيح نفسه الذي جاء من أجل الخلاص ويقاومه. (المرجع السابق ص ٤٤١).

وبعد أن تذكر الدسقولية التائبين في العهد القديم مثل داود الملك ومنسى عابد الأوثان وسافك الدم (المرجع السابق ص ٤٤٥)،
تقول الدسقولية:

"لأنه ليست خطية أعظم من عبادة الأوثان؛
لأنها كفر بالله،
ولكنه يغفرها بتوبة مستقيمة".

(المرجع السابق ص ٤٤٨).

كما تقدم الدسقولية أمثلة الراجعين إلى الله من العهد الجديد مثل بطرس الذي جحد الرب، وبولس الذي اضطهد الكنيسة. وبعد أن تطلب الدسقولية طاعة ومحبة العلمانيين، تقول في الفصل الثامن للأسقف وللقساوسة:

"لأنكم إذا طرحتم آخرين للحكم بظلم،
اعلموا أنكم تجلبون القضية من ذاتكم عليكم.
من أجل أن الرب قال: "إن بالحكم الذي تحكمون به،
يحكم عليكم" و "كما تدينون تدانون".

(المرجع السابق ص ٤٩٢).

ولذلك تقول الدسقولية إن شاهد الزور "قاتل لأخيه" (ص ٤٩٣).

وتعود الدسقولية لنفس الموضوع في الفصل العاشر لكي تحذِّر الأسقف بكلمات هي أصعب وأعنف ما كُتب:

"إنَّ من لا يجمع معي فهو يفرِّق، فإذا كنت أنت هكذا واحداً مفرقاً للرعية (تصنع الانقسام)، فأنت مضادٌ لها، وصرت عدواً لله ومُهلِك الحملان، هذه التي صار لها الرب راعياً ..".

(المرجع السابق ص ٥٢٠ – ٥٢١).